مجلة تدبر

مجلة دورية علمية محكمة تعنى بتحكيم ونشر البحوث والدراسات المتصلة بمجالات تدبر القرآن الكريم، وتصدر مرتين في السنة

العدد الحادي عشر - السنة السادسة، محرم ١٤٤٣هـ/ أغسطس ٢٠٢١م

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]

موضوعات العدد:

- الهدايات القرآنية في قوله تعالى: (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها)
  د. محمد علي جميل المطري — د. يوسف محمد عبده العواضي
- المحفوظات الواردة في سورة الحجر
  د. حامد بن عدنان الأنصاري
- محبطات العمل من خلال سورة محمد صلى الله عليه وسلم «دراسة موضوعية»
  د. نورية بنت سعيد الوادعي
- ملابسات النزول وأثرها في التوجيه البلاغي لآيات القرآن (سورة الجمعة أنموذجًا)
  د. محمد بن عبد العزيز بن عمر نصيف
- رفع الوهم وتصحيح الفهم بالفعل «حسب» وتصاريفه في القرآن
  د. خلود محمد أمين محمود الحوارى
- تقرير عن رسالة علمية بعنوان: (استعمال الصور في تفسير القرآن الكريم) تأصيل وتقويم
  للباحث: د. عبدالله بن عمر بن أحمد العمر
- تقرير عن مشروع علمي بعنوان:
  مؤسسة النبأ العظيم بمكة المكرمة
- تقرير عن مؤتمر علمي بعنوان:
  مشكل القرآن والحديث في التراث والدراسات المعاصرة

مجلة تدبر

رَفْعُ الوَهْمِ وَتَصْحِيحُ الفَهْمِ بِالفِعْلِ «حَسِبَ» وَتَصَارِيفِهِ فِي القُرْآنِ

د. خُلُود مُحَمَّد أَمِين مَحْمُود الحَوَارِي

أستاذ مشارك في التفسير وعلوم القرآن في قسم الدراسات القرآنية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة طيبة، المدينة المنورة، المملكة العربيّة السّعودية

قدم للنشر في: ١٤٤١/١١/١٦
قبل للنشر في: ١٤٤١/١٢/٢٩
نشر في: ١٤٤٣/١/١

- حصلت على درجة الماجستير في التّفسير وعلوم القرآن من الجامعة الأردنيّة في عَمّان في الأردن بأطروحة (الجوانب البلاغيّة للمجموع القرآنيّة)
- حصلت على درجة الدكتوراة في التفسير وعلوم القرآن من جامعة اليرموك في إربد في الأردن بأطروحة (أسلوبا التّأكيد والحذف من أساليب القرآن وفنونه البليغة في البرهان للزركشيّ، دراسة ونقد)

البريد الالكتروني: khulud5576@yahoo.com

بعض النتاج العلمي:

- تعدد أبنية المصادر في القرآن دراسة بلاغية سورة محمد (ﷺ) نموذجا.
- تنقيح القول في تفسير قوله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾.
- قصة زكريا ﷺ في القرآن (دراسة موضوعية).
- أقوال المفسرين في معنى الاستثناء في آيتي هود ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ دراسة وتقويم.
- الانتصار للقرآن في الإعلام بين الواقع والمأمول (الفضائيات السعودية نموذجا).
- رفع الارتياب بتحقيق الجواب عن إسقاط ومدافعة آي الكتاب للرجم.
- بناء الشخصية المحسنة في القصص القرآني. يوسف ﷺ نموذجا
- محمد شحرور وقراءته المعاصرة للقصص القرآني خلق آدم واصطفاؤه أنموذجًا. (عرض ونقد).

مجلة تدبر

مُستخلص البحث

قصدت الدّراسة إلىٰ استنباط أساليب القرآن وأدواته في رفع الوهم وتصحيح الفهم، ومعرفة دلالة (حسب) ودوره في ذلك في الاستعمال القرآني، ودراسة المفاهيم المرجوحة المبنية علىٰ حسبانٍ باطل ونظرٍ عقليٍّ قاصر توهمه أصحابه، وبيان دفعها وبطلانها تأصيلًا لسديد الفهم، وقائدًا لتقويم السلوك.

وقد بلغت ثلاثة عشر مفهومًا، من مهمات العقيدة والسلوك، في أربعة وثلاثين موضعًا بـ(حسب) وتصاريفه.

وسلكت الدّراسة لتحقيق ذلك المنهج الاستقرائي في تتبع آيات يستنبط منها أساليب تصحيح الفهم، وآيات فعل (حسب) القلبي وتصاريفه، ثم تصنيفها في مفهوم جامع ينتظمها، وكذلك تتبع آيات أخرىٰ تدفع الوهم ذاته، وتحقق الفهم بغير (حسب) وإثباتها في الهامش؛ بيانًا وإثراء، ثم المنهج التحليلي الاستنباطي في تحليل الشواهد، وتدبرها، وبيان صاحب الحسبان المتوهم، ومتعلقه، وجوابه.

وقد خلصت الدراسة إلىٰ نتائج أهمها:

- تنوع أساليب القرآن العظيم وأدواته في رفع الوهم وتحقيق الفهم، وإزالة ما قد يشوش علىٰ الحقيقة أو يزين الباطل.

- أنّ (حسب) القلبي منقول من (حسب) الحسي، فكأن صاحب الحسبان أجرىٰ عملية حساب وتدقيق ونظر عقلي، أثمرت تصوره وحسبانه.

- إفادة (حسب) اعتقاد الرجحان مقتربًا من الجزم ومترددًا إلىٰ اليقين؛ فهو

يقين مبني علىٰ أمارات العلم والنظر، مشوب بالشك، يحكم فيه الحاسب لأحد النقيضين، من غير أن يخطر الآخر بباله.

- مراعاة الاستعمال القرآني تلك الدلالة الدقيقة للفعل (حسب) في التنبيه علىٰ أوهام تصورها أصحابها بعد نظر عقليٍّ فاسد وتأملٍ أعمىٰ، أفضىٰ بهم إلىٰ مفاهيم خاطئة، وتصورات باطلة، فكان (حسب) داعٍ إلىٰ تصحيح تلك المفاهيم الدعيّة علىٰ العلم والحساب الدقيق.

وانقدحت عنها توصيات أهمها: دراسة أساليب القرآن العظيم وأدواته في رفع الأوهام وتصحيح الأفهام؛ دراسة شاملة محكمة في أطروحة علمية.

كلمات مفتاحية: حسب، تصحيح المفاهيم في القرآن، رفع الوهم.

Dispelling and Correcting Misconceptions by Using the Arabic Triliteral Verb "ḥasiba, to think" and its Different Tense-related Conjugations in the Quran

Prepared by:
Dr. Kholoud Muhammad Amin Mahmoud Al-Hawwari
Associate Professor of Tafsir and Quranic Sciences at the Department of Quranic Studies, College of Arts and Humanities, Taibah University, Al- Madinah Al-Munawwarah, the Kingdom of Saudi Arabia

Abstract

The aim of the study is to deduce the tools and methods employed by the Noble Quran in dispelling and correcting misconceptions, explore the semantic denotations of the Arabic triliteral verb "ḥasiba" (to think, assume)" and its role in the Quranic usage. The study also examines the impactful concepts based on false allegations and deviant perspectives adopted by some individuals and refutes them while providing a foundation for sound conceptions and a guideline for the rectification of behaviour. These misconceptions total thirteen ones about creed and behaviour, contained in fourteen places where the Arabic triliteral verb "ḥasiba" and its various conjugations are used.

The study used the inductive approach to dealing with the Quranic verses from which the tools and methods of correcting misconceptions can be derived in addition to the verses in which the Arabic triliteral verb "ḥasiba" and its conjugations are used and categorized them into a comprehensive systematic concept. The same approach is used for addressing other Quranic verses dispelling and correcting

same misconceptions without using the triliteral verb "ḥasiba", and those particular verses are detailed in the footnotes. The study used the analytical deductive approach for analyzing evidences and identifying those who hold misconceptions and their responses.

◆ **The study reached some findings as follows:**

- The Noble Quran used different tools and methods to refute and correct misconceptions and all that can confuse truth or normalize falsehoods.
- The verb "ḥasiba" is borrowed from its abstract meaning to a concrete one as if a holder of a misconception goes through a process of accounting and reasoning, which results in his perceptions and assumptions.

The verb "ḥasiba" connotes a dominant and quasi-certain belief. It denotes a belief that is based on knowledge and consideration but questionable. The assumer espouses one of the two extremes without taking the other into his account

- The Noble Quran uses carefully the nuanced denotation of the verb "|ḥasiba" to expose illusions by people who were involved in invalid reasoning and blind reflection, which led them to misconceptions and false beliefs. The usage of the verb "ḥasiba" is intended to correct these misconceptions that have nothing to do with proper knowledge and careful consideration.

The study concluded with some recommendations, the most important of which is that the methods and tools used by the Noble Quran for dispelling and correcting misconceptions should be incorporated into a thorough scholarly treatise.

Keywords: Hasiba - correcting the misconceptions in the Quran-dispelling illusions

المُقَدِّمَة

الحمد لله؛ الذي أنزل علىٰ عبده الكتاب، ولم يجعل له عوجًا، قيّمًا، هدىٰ للمتقين، منارًا يرشد السائرين إلىٰ صراطٍ مستقيم، ومحجة بيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك، وأفضل الصلاة وأتم التسليم علىٰ الهادي الأمين؛ محمد بن عبد الله، وعلىٰ آله وصحبه، والتابعين، وتابعيهم بإحسان، ومن اهتدىٰ بهديه إلىٰ يوم الدين، أما بعد:

فإن من أعظم دعوات الكتاب الكريم وسمو أهدافه هداية الناس إلىٰ الطريق القويم، وإرشادهم إلىٰ ما فيه عصمتهم من الزيغ والزلل؛ حتىٰ يعبدوا الله علىٰ بصيرة، ومن وسائل ذلك تصحيح المفاهيم والتصورات، وترسيخ الثوابت في مجال الاعتقاد والسلوك علىٰ حد سواء، بدفع الأوهام التي قد تعرض للسائر في هذا الطريق، فتحيد به عنه، أو تنال غيره ممن يحيطون به فيحذرها، ويعصم من الوقوع فيها.

وقد تنوعت أساليب القرآن العظيم وأدواته في دفع الأوهام المرجوحة؛ المتحصلة دون سبب موضوع للعلم(١)، وتحقيق الأفهام الثاقبة؛ المبنية علىٰ صريح العلم وقوة الدليل، وإزالة ما قد يشوش علىٰ الحقيقة أو يزين الباطل، حيث رصد القرآن واقع هذه الظنون المرجوحة أو الأوهام؛ فأجاب عنها وأبطلها، فهي مفاهيم جلّاها القرآن كاشفًا لدائها، وصححها جوابًا كافيًا ودواءً شافيًا.

ومن تلك الأساليب استخدام الفعل (حسب) وتصاريفه؛ وهو من أفعال الرجحان، التي هي من أفعال القلوب، حيث نبه (حسب) علىٰ أوهام تصورها أصحابها، بعد نظرٍ عقليٍّ فاسد وتأملٍ أعمىٰ، حدا بهم إلىٰ اليقين، وتمكن في

(١) ينظر في تعريف الوهم: الكليات ص٩٣٤.

أنفسهم، مفضيًا بهم إلىٰ اعتقاد بطلان الحق وأحقية الباطل، فكانت (حسب) داعية إلىٰ تصحيح تلك المفاهيم الدعيّة علىٰ العلم والحساب الدقيق.

ومن هنا برزت أهمية الدراسة، في جمع تلك المفاهيم، ودراستها؛ ببيان صاحب الحسبان، ومتعلقه، وجوابه، وبيان التوجيهات الربانية في إبطاله وتسديد الفهم؛ طريقًا لتقويم السلوك، وبيان عظمة الكتاب الكريم، وإعجازه في شفائه للقلوب من داء الجهل والوهم.

مشكلة الدراسة:

تتركز مشكلة الدراسة في السؤال التالي: كيف رفع القرآن الوهم وصحح الفهم بـ(حسب) وتصاريفه؟

ويتفرَّع عن هذا السؤال عدَّة أسئلة هي: ما أساليب القرآن العظيم وأدواته في رفع الأوهام وتصحيح الأفهام التي يمكن استنباطها من السياق القرآني؟ ما معنىٰ (حسب)، وما دلالته علىٰ الترجيح؟ وما أثره في التنبيه علىٰ الوهم ودفعه وتصحيح الفهم في القرآن؟ وما المفاهيم المصححة بـ(حسب) وتصاريفه في القرآن، وما أثر ذلك في بناء السلوك القويم؟

أهداف الدراسة:

- استنباط ما يمكن أن يكون أسلوبًا للقرآن العظيم في رفع الأوهام وتصحيح الأفهام.
- معرفة دلالة حسب وأثره في رفع الوهم وتصحيح الفهم في الاستعمال القرآني.
- دراسة المفاهيم المرجوحة المبنية علىٰ حسبانٍ باطل ونظرٍ عقلي قاصر توهمه أصحابه، وبيان دفعها وبطلانها تأصيلًا لسديد الفهم وقائدًا لتقويم السلوك.

الدراسات السابقة:

لم أقف علىٰ من تناول أساليب القرآن العظيم وأدواته في رفع الوهم وتحقيق الفهم، فضلًا عن دراسة اختصت بأسلوب استخدام (حسب)، وهو محل دراستي.

منهج الدراسة:

اتبعت في هذا البحث المنهج الاستقرائي؛ لتتبع آيات يستنبط منها أساليب القرآن العظيم وأدواته في رفع الوهم وتحقيق الفهم، وتتبع آيات فعل (حسب) الذي هو من أفعال الرجحان، والذي يبرز دوره في تصحيح المفاهيم(١)، ثم تصنيفها في مفهوم جامع ينتظمها، وكذلك تتبع آيات أخرىٰ تردُّ الوهمَ ذاته وتحقق الفهم بغير (حسب)، وأثبته في الهامش بيانًا وإثراء.

ثم المنهج التحليلي الاستنباطي في تحليل الشواهد وتدبرها، وبيان صاحب الحسبان المتوهم، ومتعلقه، وجوابه، بالدليل والبرهان.

خطة البحث:

وقد طمح البحث إلىٰ بيان دور حسب وتصاريفه في رفع الوهم وتحقيق الفهم في القرآن **وفق المخطط الآتي:**

المبحث الأول: أساليب تصحيح المفاهيم في القرآن، والتصحيح بـ (حسب).

المطلب الأول: أساليب تصحيح المفاهيم في القرآن.

المطلب الثاني: تصحيح المفاهيم بـ(حسب) في القرآن.

---

(١) فاستبعدت تلك التي لا تمثل مفهومًا واضحًا أو تتعلق بحسبان للحدث لا للمفهوم؛ فخرج قوله تعالىٰ: ﴿يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْ﴾[الأحزاب: ٢٠]. وقوله: ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡ﴾ [المنافقون: ٤].

المبحث الثاني: المفاهيم المصححة بـ(حسب) وتصاريفه في القرآن.

المفهوم الأول: تحقق الإيمان بلا تكليف، واستحقاق النصر والتمكين والجنة والنعيم بلا تمحيص.

المفهوم الثاني: مفازة المسيئين من العذاب، وإمهالهم خير لهم، وإمدادهم بالنعم إكرام ومزية.

المفهوم الثالث: منفعة الكافر بعمله ومجازته عليه.

المفهوم الرابع: وجود الأولياء ونصرتهم من دون الله.

المفهوم الخامس: انتفاء غاية الخلق واستبعاد البعث.

المفهوم السادس: انقطاع حياة الشهداء وفوات نعيمهم بعد الموت.

المفهوم السابع: كنز المال غنيمة لصاحبه، وطريق خلوده.

المفهوم الثامن: تماثل الضدين، والمساواة بين المحسن والمسيء.

المفهوم التاسع: خفاء الباطن علىٰ الله.

المفهوم العاشر: اعتبار الظاهر دون تنقيب.

المفهوم الحادي عشر: عدم مؤاخذة المتشبع بما لم يعط.

المفهوم الثاني عشر: تمحض المصائب للشر.

المفهوم الثالث عشر: ترك المؤاخذة بقول اللسان.

الخاتمة وفيها أهم النتائج والتوصيات.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول:

أساليب تصحيح المفاهيم في القرآن، والتصحيح بـ(حسب)

المطلب الأول:

أساليب تصحيح المفاهيم في القرآن

تنوعت أساليب القرآن العظيم وأدواته في دفع الأوهام المرجوحة، وتحقيق الأفهام الثاقبة؛ المبنية على صريح العلم وقوة الدليل، وإزالة ما قد يشوش على الحقيقة أو يزين الباطل.

وقد نبه القرآن على هذه الظنون المرجوحة أو الأوهام، فأجاب عنها وأبطلها تحديدًا، بعد عرضها وبيانها، فهي مفاهيم جلّاها القرآن ثم صحّحها، وأصّلها معتقدات راسخة في هذا الدين.

ومما يتأمل من ذلك استخدام الأساليب الآتية:

أولًا: الاستفهام الإنكاري

تنبيهًا للوهم، ودعوة صريحة لتصحيح الفهم، من ذلك قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ١٩]. فأسهم الاستفهام في دفع وهم المشركين استواء الأعمال واتحاد مراتبها عند الله - كاستواء أعمالهم في السدانة والخدمة للبيت الحرام، مع الإيمان بالله والجهاد في سبيله - وحقق فهم علو شأن الإيمان، ونصرة هذا الدين، على تلك الأعمال.

وقوله: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤] فنبه الاستفهام علىٰ دفع منكرٍ اعتقده العرب؛ وهو أن الملائكة بنات الله، وأنهم اصطفوا بالبنين مكرمة علىٰ خالقهم قولًا إدًّا وبهتانا مبينا، تعالىٰ الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

ثانيًا: النفي والاستدراك بـ(لكن)

لينبه علىٰ الوهم المرجوح بما في حيز النفي، ويصحح الفهم استدراكًا بعد (لكن):

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]. فنبه النفي إلىٰ رفع المفهوم المتوهم المجزأ للبر، وتقييده بالقبلة التي تفاخر أهل الكتاب بتوليها، وأجيب استدراكًا بعد لكن بحقيقة البر الشاملة لأركان الدين، قال الزمخشري: «فقيل: ليس البر العظيم الذي يجب أن تذهلوا بشأنه عن سائر صنوف البر أمر القبلة، ولكن البر الذي يجب الاهتمام به وصرف الهمة إليه بر من آمن وقام بهذه الأعمال»(١).

وقوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦ – ٦٧]. فجاء النفي لبيان انتفاء تلبس هود ﷺ بأي شائبة من هذه الصفة الشنعاء التي اعتقدوا وجودها فيه؛ مع اتهامهم له بالكذب، وأجابهم بما يقطع أملًا في توهمها، قال أبو السعود: «﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ استدراك مما قبله باعتبار ما يستلزمه ويقتضيه

(١) الكشاف، للزمخشري (١/ ٢١٨).

من كونه في الغاية القصوىٰ من الرشد، والأناة، والصدق، والأمانة، فإن الرسالة من جهة رب العالمين موجبة لذلك حتمًا، كأنه قيل: ليس بي شيء مما نسبتموني إليه، ولكني في غاية ما يكون من الرشد والصدق، ولم يصرح بنفي الكذب اكتفاء بما في حيز الاستدراك»[(١)].

ثالثًا: (كلّا)

ردعًا موقظًا للمخطئ في توهمه بتصحيح الفهم بعد (كلّا)، من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٧ – ٧٩]. فنبهت (كلّا) علىٰ أن إمهال الكافر استدراجٌ له، لا كما توهم أن إمداده بالمال والولد وسائر النعم دليل رضىٰ وإكرام. قال الزمخشري: «﴿كَلَّا﴾ ردع وتنبيه علىٰ الخطأ، أي: هو مخطئ فيما يصوره لنفسه، ويتمناه؛ فليرتدع عنه»[(٢)].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ١٤ – ١٥]. حيث أسهمت (كلّا) في تحقيق الفهم، وشدّ عضد الكليم عليه السلام ثقة بالله، قال القرطبي: «أي: كلّا، لن يقتلوك. فهو ردع وزجر عن هذا الظن. وأمر بالثقة بالله تعالىٰ، أي: ثق بالله، وانزجر عن خوفك منهم؛ فإنهم لا يقدرون علىٰ قتلك»[(٣)].

رابعًا: (بل)

إبطالًا وإضرابًا عما هو مظنون موهوم، وتحقيقًا للفهم بما هو في حيزها، من

(١) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٣/ ٢٣٨).

(٢) الكشاف، للزمخشري (٣/ ٤٠).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٣/ ٩٢).

ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]، حيث استخدمت في رد قولٍ منطوقٍ باللسان، لمن توهم بقلبه انقطاع حياة الشهداء، وفوات تنعمهم بعد الموت، بإثبات حياة الشهداء وتحليهم بخصائص الأحياء، والنعيم المقيم، وإن لم يدركها الأحياء.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]. فأتت (بل) إضرابًا عن الوهم المزعوم المنبه عليه، وهو قولهم في حق الملائكة أنهم بنات الله – وبنحو ذلك في حق عزير وعيسىٰ عليه السلام – قال ابن عطية: «فجاءت هذه الآية رادة علىٰ جميعهم، منبهة عليهم، ثم نزه تعالىٰ نفسه عن مقالة الكفرة، وأضرب عن مقالهم، ونص ما هو الأمر في نفسه بقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾، وهذه عبارة تشمل الملائكة وعزيرًا وعيسىٰ»(١).

خامسًا: (بلى) بمعنى بل:

وتأتي حرف جواب وإبطال – يبطل الموهوم، ويحقق الفهم – كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٣٨]. حيث أجاب يقينهم بنفي البعث بدلالة إقسامهم بما يقطع بحدوثه بـ(بلىٰ)، قال ابن عاشور: «وإنما أيقنوا بذلك، وأقسموا عليه؛ لأنهم توهموا أن سلامة الأجسام وعدم انخرامها شرط لقبولها الحياة، وقد رأوا أجساد الموتىٰ معرضة للاضمحلال، فكيف تعاد كما كانت..... و(بلىٰ) حرف لإبطال النفي في الخبر، وتأكيد حصول البعث بعد الموت، أي: بل يبعثهم الله»(٢).

---

(١) المحرر الوجيز، لابن عطية (٤/ ٧٩).

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٤/ ١٥٣-١٥٤).

سادسًا: (قل)

تنبيهًا لما بطل تصوره قبل (قل)، وتلقينًا للحجة في رده وتصحيح الفهم، من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٧٨]. فتصدرت جواب ما زعمه اليهود والمنافقون من المفارقة بين النعمة والبلية؛ فعدُّوا الأولىٰ من الله ﷻ وأضافوا الثانية إلىٰ النبي ﷺ تطيرًا وتشاؤمًا[١]، قال أبو السعود: «فأمر النبي ﷺ بأن يرد زعمهم الباطل، ويرشدهم إلىٰ الحق، ويلقمهم الحجر؛ ببيان إسناد الكل إليه تعالىٰ..»[٢].

سابعًا: أفعال الظن أو الرجحان

ولم يرد في القرآن منها سوىٰ (ظن)، و(زعم)، و(حسب)، فليس فيه (حجا) ولا (عد) ولا (هب) ولا (خال)[٣]، وقد ضربت هذه الأفعال بسهم كبير في التنبيه علىٰ رفع المتوهم وإبطاله، وتحقيق صحيح الفهم.

أ- ظن: ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٢ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٢ - ٢٣].

إذ نبه (ظن) إلىٰ مرجوح الفهم للكفار المجترئين علىٰ المعاصي، غير المستخفين من الله ومن الجوارح الشاهدة عليهم بإذنه؛ ظنًّا أن الله لا يعلم حالهم وخفيات أعمالهم، فكان ظنّهم وبالًا عليهم، مهلكًا لهم، مقررًا لخسارهم.

(١) التفسير البسيط، للواحدي (٦/ ٦١٢).

(٢) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٢/ ٢٠٥).

(٣) ينظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، محمد عبد الخالق عضيمة (٩/ ٣١٩).

وفي هذا تحقيق لأفهام المؤمنين، وتحذير لهم، وعصمة من الوقوع في مثل حالهم، قال الزمخشري: «وفي هذا: تنبيه علىٰ أن من حق المؤمن أن لا يذهب عنه، ولا يزل عن ذهنه، أن عليه من الله عينًا كالئة، ورقيبًا مهيمنًا؛ حتىٰ يكون في أوقات خلواته من ربه أهيب وأحسن احتشامًا، وأوفر تحفظًا وتصونًا منه مع الملأ، ولا يتبسط في سرّه؛ مراقبة من التشبه بهؤلاء الظانين»(١).

ب- زعم: ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن: ٧]. وقوله: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا﴾ [الكهف: ٤٨]، حيث سجل (زعم) وهمًا متمكنًا في نفوس الكفار في استبعاد البعث، وأجيب بوقوعه لا محالة؛ لزومًا لحسابهم جزاءً وفاقًا، وهو يسيرٌ علىٰ الله؛ فمن خلقهم أول مرة قادر علىٰ ما هو أهون، وهي الإعادة.

ج- حسب: وهو موضع الاستشهاد والتأمل والدراسة في هذا البحث، فأوثر بالبيان والتمثيل كما سيأتي.

◆ ◆ ◆

(١) الكشاف، للزمخشري (٤/ ١٩٦).

المطلب الثاني:
تصحيح المفاهيم بـ(حسب) وتصاريفه في القرآن

أولًا: التعريف بـ(حسب)

لـ(حسب) أصول أربعة كما قال ابن فارس[(١)].

الأول: من العد والإحصاء، حسب الشيء يحسبه حسبًا وحسبانًا، وهو متعد إلىٰ مفعول واحد[(٢)]، ومنه الحسبان المعنوي حيث يتعدىٰ حسب إلىٰ مفعولين، قال ابن فارس: «لأنه إذا قال حسبته كذا، فكأنه قال: هو في الذي أعده من الأمور الكائنة»[(٣)]، ومنه: الحسب، وهو مآثر الأفعال، وشريف الخصال: كالكرم، والشجاعة، ونحوها؛ ذلكم أن من يفتخر بها يعدها[(٤)]، ومنه: الاحتساب من قولهم: احتسب فلان ابنه، إذا مات كبيرًا؛ وذلك أن يعده في الأشياء المذخورة له عند الله تعالىٰ[(٥)].

الثاني: الكفاية، فتستعمل استعمال الصفات، كـ«مررت برجل حسبك من رجل»؛ أي: كافٍ لك عن غيره، وتستعمل استعمال الأسماء؛ نحو: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [المجادلة: ٨]. ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾[الأنفال: ٦٢]. وبنحوه استخدام حسب مفردة بمنزلة (لا غير)[(٦)].

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة، لابن فارس (٢/ ٥٩).

(٢) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني (ص: ٢٣٢)، لسان العرب، لابن منظور (١/ ٣١١).

(٣) مقاييس اللغة، لابن فارس (٢/ ٥٩).

(٤) ينظر: لسان العرب، لابن منظور (١/ ٣١١).

(٥) ينظر: مقاييس اللغة، لابن فارس (٢/ ٥٩).

(٦) ينظر: أوضح المسالك إلىٰ ألفية ابن مالك، لابن هشام (٣/ ١٣٨-١٣٩).

الثالث: الوسادة الصغيرة، هي حسبانة وجمعها حسبان. وقد حسّبت الرجل أُحسِّبه، إذا أجلسته عليها ووسدته إيّاها، ومنه السهم الصغير يرمىٰ به وهو حسبانة. ومنه قولهم: أصاب الأرض حسبان، أي جراد[(١)]. واستعمل فيما يرسل من عذاب وبلاء كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الكهف: ٤٠][(٢)].

الرابع: تغير لون الجلد، يقال: (أحسب الرجل) إذا ابيض جلده أو احمر من داء ففسدت بشرته، كأنه أبرص، وكذا إذا كان ذا شقرة. وتكون حسب لازمة[(٣)].

والأصل المحتفىٰ به في هذا البحث هو الأول، وهو الحسبان الحسي الذي منه الحسبان المعنوي، وهو كون حسب من أفعال القلوب، وهي الأفعال التي تمثل تصورات فاعلها؛ فهي أمور تقع في النفس ومعانيها قائمة في القلب صادرة عنه، وتلك الأمور علم وظن وشك؛ فما قطع به من غير معارض فهو العلم. وإن وجد المعارض من دليل آخر وتردد النظر بينهما علىٰ سواء فهو شك. وإن رجح أحدهما، فالراجح ظن، والمرجوح وهم[(٤)].

وتتعدىٰ هذه الأفعال إلىٰ مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر نحوُ: «ظننت زيدًا قائمًا» و«حسبت بكرًا منطلقًا» فلا يقتصر علىٰ أحد المفعولين؛ لأن بمجموعهما تتحقق الفائدة؛ فالأول معتمد البيان، والثاني معتمد الفائدة[(٥)].

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة، لابن فارس (٢/ ٥٩).

(٢) ينظر: لسان العرب، لابن منظور (١/ ٣١٥).

(٣) ينظر: مقاييس اللغة، لابن فارس (٢/ ٥٩)، ارتشاف الضرب من لسان العرب، أبو حيان (٤/ ٢١٠١)، همع الهوامع، للسيوطي (١/ ٥٤٣).

(٤) ينظر: شرح المفصل، لابن يعيش (٤/ ٣١٨).

(٥) ينظر: المرجع نفسه (٤/ ٣٢٦).

وتنقسم أفعال القلوب إلىٰ قسمين:

الأول: أفعال دالة علىٰ اليقين، وهي: (رأىٰ)، و(علم)، و(وجد)، و(درىٰ)، و(تعلم).

الثاني: أفعال دالة علىٰ الرجحان وهي: (خال)، و(ظن)، و(حسب)، و(زعم)، و(عد)، و(حجا)، و(هب)[(١)].

وقد سماها بعض النحاة أفعال الشك أو الظن[(٢)]، ولعل إطلاق مصطلح (الرجحان) أصدق دلالة علىٰ هذه الأفعال من غيرها؛ لأن مصطلح (الرجحان) يدل علىٰ تغلب أحد الدليلين المتعارضين في أمر ورجوحه علىٰ الآخر، أما الشك: فهو تساوي الدليلين وعدم ترجح أحدهما، وأما الظن: فهو ترجح أحد الدليلين دون استبعاد احتمال الاخر، وهو إن طابق أحد هذه الأفعال وهو (ظن) إلا أنه لا يصدق علىٰ جميع أخواتها[(٣)].

ثانيًا: دلالة (حسب)

يظهر مما سبق أن الفعل حسب دال علىٰ الرجحان أو إرادة الاعتقاد الراجح[(٤)]، وقد رأىٰ بعض النحاة المتأخرين دلالته علىٰ اليقين، وإن نصوا علىٰ قلة ذلك[(٥)] استدلالاً بشاهدٍ شعري، وهو قول الشاعر[(٦)]:

(١) ينظر: شرح ابن عقيل علىٰ ألفية ابن مالك (٢/ ٢٨-٢٩)، معاني النحو، فاضل السامرائي (٢/ ٦).

(٢) ينظر: الكتاب، لسيبويه (١/ ٣٩-٤٠)، المقتضب، للمبرد (٣/ ٩٥)، شرح المفصل، لابن يعيش (٤/ ٥٥٥).

(٣) ينظر: دلالة أفعال اليقين والرجحان عند النحويين، لمصطفىٰ هاتف بريهي ص٤، ص١١.

(٤) ينظر: معاني النحو، فاضل السامرائي (٢/ ٢٢).

(٥) ينظر: ارتشاف الضرب، لأبي حيان (٤/ ٢١٠١)، شرح ابن عقيل، لابن عقيل (٢/ ٣٤)، شرح الأشموني، للأشموني (١/ ٣٥٣)، همع الهوامع للسيوطي (١/ ٥٤٢).

(٦) وهو قول لبيد العامري ينظر المراجع السابقة.

حسبت التقىٰ والحمد خير تجارة ... ربـاحًـا إذا مـا الـمـرء أصبـح ثـاقـلًا

ولعله ضمن (حسب) معنىٰ علم، والتضمين لا ينبغي أن يجعل أصلًا يقاس عليه؛ فلا تخرج (حسب) عن دلالة الرجحان أو الظن(١).

وتبين دلالة (حسب)، وتعرف منزلتها في الترجيح بالتفريق بينها وبين (ظن) أم الباب، فإن (حسب) القلبي، منقول من (حسب) الحسي وهو العد والإحصاء كما تقدم، فإن القول (حسبت محمدًا صاحبك) فيه معنىٰ الحساب، أي: حسب ذلك، وانتهىٰ إلىٰ ما انتهىٰ إليه بعد مراقبة الحال، فكأن صاحب الحسبان أجرىٰ عملية حساب أثمرت تصوره وحسبانه، فهو قائم علىٰ الحساب والنظر العقلي، بخلاف الظن الذي يدخل الذهن ويلابسه لأدنىٰ سبب(٢).

وكذلك تختلف دلالة (حسب) عن الظن في اعتبار الترجيح والجزم، فالظن ترجيح أحد الطرفين اعتقادًا راجحًا؛ لا ينقبض النفس معه عن الطرف الآخر، فهو اعتقاد راجح بلا جزم؛ ولذا يقبل الشّدة والضّعف، وطرفاه علم وجهل، فبعض الظنون أقوىٰ من بعض(٣)، بخلاف (حسب) الذي يفيد اعتقاد الرجحان مقتربًا من الجزم «فإن قال قائل: (حسبت زيدًا أخاك) فإنه إنما تردد أن يجزم باليقين بأن زيدًا أخ لك، فكان يقينه وعلمه مشوبًا بالشك غير مساو له، لأن أمارة من أمارات العلم هي التي دعته إلىٰ هذا الحسبان، وكل حسبان لا يكون إلا علىٰ النظر العقلي بعد التأمل والمراقبة، وبذا يكون حسبان القائل أرجح إلىٰ اليقين»(٤)، قال الراغب:

(١) ينظر: أفعال القلوب إلغاء وتعليقا، لخطاب عمر بكر ص٩.

(٢) ينظر: معاني النحو، لفاضل السامرائي ٢/ ٢٣.

(٣) ينظر: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، للتهانوي (٢/ ١١٥٤).

(٤) ينظر: دلالة أفعال اليقين والرجحان عند النحويين، لمصطفىٰ هاتف بريهي ص٣.

«والحسبان: أن يحكم لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله، فيحسبه ويعقد عليه الإصبع، ويكون بعرض أن يعتريه فيه شك، ويقارب ذلك الظن، لكن الظن أن يخطر النقيضان بباله فيغلب أحدهما على الآخر»[١].

وبهذا المعنى، وتلك الدلالة الدقيقة، استخدمت (حسب) وتصاريفه في القرآن الكريم، في التنبيه على أوهام تصورها أصحابها، بعد نظرٍ عقليٍّ فاسد، وتأملٍ أعمى، تمكن في أنفسهم، أفضى بهم إلى اعتقاد بطلان الحق، وأحقية الباطل، فكانت حسب داعية إلى تصحيح تلك المفاهيم الدعية على العلم والحساب الدقيق.

وقد أحصيت من تلك المفاهيم المتصلة بحسب وتصاريفه ثلاثة عشر مفهومًا؛ من مهمات العقيدة والسلوك، في أربعة وثلاثين موضعًا، كما سيأتي.

(١) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني (ص: ٢٣٤).

المبحث الثاني:

المفاهيم المصححة بـ(حسب) وتصاريفه في القرآن

المفهوم الأول: تحقق الإيمان بلا تكليف، واستحقاق النصر والتمكين والجنة والنعيم بلا تمحيص

دعت التوجيهات الربانية إلىٰ بناء تصور إيماني سديد حول مفهوم العمل والجزاء، برفع وهم اقتضاه نظر عقلي بحسبان مرجوح، وهو: تحقق الإيمان بلا تكليف، واستحقاق النصر والتمكين والجنة والنعيم، بلا تمحيص، في آيات كريمات بـ(حسب)[(١)]. هي: قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]. وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]. وقوله: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢ – ٣].

وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٦]. وذلك عقب استفهام

(١) ومن الآيات القرآنية النظيرة التي تصحح هذا الفهم بغير حسب قوله تعالىٰ: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران:١٧٩]، وقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ١٣].

استنكاري ينبه إلىٰ خطأ هذا التصور، ويصحح نظر المسلمين إلىٰ سنة الله في العمل والجزاء.

قال الزمخشري: «أَمْ، منقطعة، ومعنىٰ الهمزة فيها: للتقرير، وإنكار الحسبان، واستبعاده..»(١) فلا اكتفاء بمجرد النطق بالإيمان عن أداء تكاليفه، ولا اغتنام للجنة دون عناء مكارهها، فإذا ما تمحض الإيمان تحقق النصر والتمكين في الحال، وأزلفت الجنة في المآل.

وهي سنة قديمة، جرت مع السابقين في الإيمان من أتباع الأنبياء، كما في آية البقرة، قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُم﴾ فمجيء تلك المماثلة، في الابتلاء والفتنة، مرجوة متوقعة بعد حصول الإيمان، كما أفادت (لما).

قال الزمخشري: «وَلَمَّا، فيها معنىٰ التوقع، وهي في النفي نظيرة «قد» في الإثبات. والمعنىٰ: أن إتيان ذلك متوقع منتظر، ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾ حالهم التي هي مثل في الشدّة.»(٢).

ونظيرها ما جاء في آية العنكبوت: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ فأكد ذلك المعنىٰ بقد.

ولا يخفىٰ ما في تأمل سنن الماضين أيضًا من معاني التسلية للمؤمنين، قال الرازي: «فعزاهم الله في ذلك، وبين أن حال من قبلهم في طلب الدين كان كذلك، والمصيبة إذا عمت طابت»(٣).

وفي ذلك تهيئة وإعداد لهم تحقيقًا للشرف والمزية، قال ابن عاشور: «وتطرق هاته الحالة سنة من سنن الله تعالىٰ في أتباع الرسل في أول ظهور الدين؛ وذلك من

---

(١) الكشاف، للزمخشري (١/ ٢٥٦).

(٢) الكشاف، للزمخشري (١/ ٢٥٦).

(٣) التفسير الكبير، للفخر الرازي (٦/ ٣٧٩).

أسباب مزيد فضائل اتباع الرسل، فلذلك هيئ المسلمون لتلقيه من قبل وقوعه لطفًا بهم؛ ليكون حصوله أهون عليهم»[(١)].

وهي سنة باقية جارية لا تحويل ولا تبديل، فإن خاطبت آية العنكبوت مؤمني مكة في بداية الدعوة الذين عانوا أذى المشركين قبل هجرتهم[(٢)]، وإن نزلت آية آل عمران تخاطب مؤمني أحد الذين أصابهم القرح وتنبههم إلى خطأ ذلك الحسبان[(٣)]، وإن قيل: إن آية البقرة خاطبت المؤمنين يوم الخندق حين لقوا ما لقوا من شدة الجهد، التي أشير إليها في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾ [الأحزاب: ٩-١١][(٤)]، أو أن ما حصل في يوم الأحزاب مثلُ على تلك اللأواء، قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «وقد حصل من هذا جانب عظيم للصحابة رضي الله عنهم في يوم الأحزاب»[(٥)]، وإن جاءت آية التوبة في أواخر الدعوة تحرض على قتال المشركين بعد نقضهم العهود وتخاطب من شق عليهم القتال من المؤمنين[(٦)] «فشمل المنافقين لأنهم أظهروا الإسلام »[(٧)]، فإن الخطاب في هذه الآيات مطردٌ لكل أتباع الهدى والإيمان في كل زمان ومكان، محققٌ لتكاليف

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢/ ٣١٥).

(٢) ينظر: جامع البيان، للطبري (١٩/ ٧-٨).

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٤/ ٢٢٠).

(٤) ينظر: جامع البيان، للطبري (٤/ ٢٨٨).

(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٥٧١).

(٦) ينظر: معالم التنزيل، للبغوي (٤/ ١٩)، وأنوار التنزيل، للبيضاوي (٣/ ٧٤).

(٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور (١٠/ ١٣٧).

هذا الدور العظيم الذي لم يسلم منه خير القرون.

بل إن إنكار هذا الحسبان علىٰ أهل الصدر الأول من المسلمين - الذين كانوا خير أمة أخرجت للناس - أكبر عبرة وموعظة لمن يأتي بعدهم، ويحسبون أنهم بمجرد الانتماء إلىٰ الإسلام يكونون أهلًا لدخول الجنة[1] «فكيف لا ينكر مسلم علىٰ نفسه مثل هذا، وهو يعلم أنه دون الصحابة الكرام إيمانًا، وإسلامًا، ودعوة إلىٰ الحق، وصبرًا علىٰ المكاره في سبيله؟!»[2].

وأما المكاره والتكاليف - التي أسهم استخدام (حسب) في تسجيل خطأ تصور مفارقتها لمفهوم الإيمان والجزاء كما نطقت بها الآيات الكريمات - فهي:

أ- البأساء والضراء: وهما اسمان للبؤس والضر[3]، وقد نقل الطبري عن السلف أن البأساء: الفقر والفاقة والحاجة، والضراء: العلل والأسقام والأوجاع[4]، ورأىٰ الرازي تعميم الفرق بينهما - بعد متابعته للمعاني السابقة باعتبارها تفسيرًا بالمثال - قال: «وعندي أن البأساء: عبارة عن تضييق جهات الخير والمنفعة عليه، والضراء: عبارة عن انفتاح جهات الشر والآفة والألم عليه»[5].

ب- الزلزلة: أصلها تحريك الشيء[6]، وقد لحظ الزجاج هذا المعنىٰ في تفسيره فقال: «معنىٰ (زلزلوا) خوفوا وحركوا بما يؤذي... فإذا قلت: زلزلة. فتأويله

(١) ينظر: تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا (١/ ٢٣٨).

(٢) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا (١/ ٢٤١).

(٣) ينظر: جامع البيان، للطبري (٣/ ٣٥٣).

(٤) ينظر: جامع البيان، للطبري (٣/ ٣٤٩-٣٥١).

(٥) التفسير الكبير، للفخر الرازي (٦/ ٣٧٩).

(٦) ينظر: لسان العرب، ابن منظور فصل الزاي المعجمة (١١/ ٣٠٧).

كررت زلزلته من مكانه، ... فالمعنىٰ أنه يكرر عليهم التحريك بالخوف»(١)، أي أنهم مضطربين غير مستقرين حقيقة لما في قلوبهم من الخوف والجزع(٢)، ورأىٰ غيره - وهو الأولىٰ - أنها زلزلة مجازية أي «وأزعجوا إزعاجًا شديدًا شبيها بالزلزلة بما أصابهم من الأهوال والأفزاع»(٣)، والتي منها الشدائد التي يقاسيها المؤمنون في طريق دعوتهم، ومجاهدة أعدائهم التي يعظم قدرها وتبلغ غايتها باستبطاء الرسل ومن معهم النصر مع يقينهم به، قال الزمخشري: «وفي هذه الغاية دليل علىٰ تناهىٰ الأمر في الشدة وتماديه في العظم، لأنّ الرسل لا يقادر قدر ثباتهم واصطبارهم وضبطهم لأنفسهم، فإذا لم يبق لهم صبر حتىٰ ضجوا؛ كان ذلك الغاية في الشدة التي لا مطمح وراءها..»(٤) وفي مثل ذلك ما أخرجه البخاري من حديث خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ قَالَ: شَكَوْنَا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو اللهَ لَنَا؟! قَالَ: «**كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَىٰ رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ. وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّىٰ يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَىٰ حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ أَوِ الذِّئْبَ عَلَىٰ غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**»(٥).

ج- الجهاد: وهو وإن ذكر في مقام مجاهدة الأعداء في آيتي آل عمران والتوبة، إلا أن إطلاق لفظ الجهاد معين علىٰ توسيع مفهومه، ليشمل صورًا أخرىٰ كجهاد

(١) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (١/ ٢٥٦).

(٢) ينظر: التفسير الكبير، للفخر الرازي (٦/ ٣٧٩).

(٣) الكشاف، للزمخشري (١/ ٢٥٦)، وينظر: التفسير الكبير، للفخر الرازي (٦/ ٣٧٩).

(٤) الكشاف، للزمخشري (١/ ٢٥٦).

(٥) الصحيح، للبخاري - كتاب المناقب - باب علامات النبوة في الإسلام، ٤/ ٢٠١ح ٣٦١٢.

النفس والهوىٰ والشيطان، ومكافحة الشدائد عامة.

د-الصبر والثبات: وهو من أعظم مقتضيات الجهاد ولوازمه، ولذا عطف عليه في آية آل عمران؛ التي عوتب بها مؤمنو أُحد بعد تسليتهم، وقد أخذوا من قلة صبر الرماة، فلا بد من الصبر في تحمل مشاق الجهاد، ولا بد منهما استحقاقًا لدخول الجنة. وقد يرىٰ بعطف الصبر علىٰ الجهاد توسيع مفهوم الصبر؛ ليشمل الصبر علىٰ كل ما سبق من المكاره، والثبات علىٰ تكاليف الدعوة ومنها الجهاد.

هـ- المفاصلة وتمحيص الصف: وقرن الجهاد في آية التوبة بخلوص الإيمان والانتماء والولاء له، والبراءة من أعدائه، فلا يترك المؤمن علىٰ حاله حتىٰ يؤمر بالجهاد ويبتلىٰ بما يمحصه، ويميز إخلاصه بولايته لله ببعده عن الرياء والنفاق واتخاذ وشائج وولائج مع أعداء الله من دون المؤمنين، والوليجة كما قال الزجاج هي «البِطَانَةُ، وهي مأخوذة مِنْ وَلَجَ الشيء يلِجُ إِذا دَخَلَ. أي ولم يَتَخِذوا بينهم وبينَ الكافرين دَخيلَةَ مَوَدةٍ»[(١)].

وكما أن الإخلاص من لوازم الإيمان وشرائط الجهاد، فهو ثمرة للابتلاء، فبه يعرف، وبه يميز الله الخبيث من الطيب، والصادق من الكاذب، ويستقيم الصف دون مخالفة أو نشوز قال تعالىٰ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢ - ٣].

وفي هذه الآية الكريمة، يظهر أن المكاره السابقة جميعها، هي الفتنة المقصودة، قال الرازي: «فالزلزلة... ومس البأساء والضراء، هي: الفتنة والفتون»[(٢)].

فالفتنة علىٰ الإيمان سنة جارية، وطريق لا مناص عنه، وأي حسبان خلاف ذلك، باطل، لا ينبغي اعتقاده.

(١) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٢/ ٤٣٧).
(٢) التفسير الكبير، للفخر الرازي (٢٢/ ٥٠).

المفهوم الثاني: مفازة المسيئين من العذاب، وإمهالهم خير لهم، وإمدادهم بالنعم إكرام ومزية

كما أن الابتلاء للتمييز والتمحيص سنة جارية، فإن أخذ الكفار وعقابهم طريق لا يتخلف، ومن حسب غير ذلك؛ فقد فسد رأيه وساء حكمه.

وقد صدحت الآيات الكريمات(١) بتحقيق ذلك بإنكار هذا الحسبان في قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤]. وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ [البلد:٥]. وبآكد النهي تحقيقًا للخبر في قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ [الأنفال: ٥٩]. وقوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [النور: ٥٧]. وقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [إبراهيم:٤٧]. وبالإخبار؛ ذمًا لمن اغتر وغفل عن سنة الله في الأخذ والعقاب في قوله تعالى: ﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٧١].

صاحب الحسبان ومحله:

أصحاب الحسبان هم الكفار، كما صرح في آية الأنفال ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ

(١) ومن الآيات النظيرة التي تحقق هذا الفهم بغير حسب قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦ – ١٩٧]. وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٢ – ٣]. وقوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٢٢ – ٢٣].

كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾، يحسبون أنهم سبقوا العذاب علىٰ كفرهم وسومهم المؤمنين النكال، فجاوزوه ولم يلحق بهم(١)، أو: فاتوه. أي: ابتعدوا عنه؛ فتعذر إدراكهم(٢)، أو: أعجزوا الله عن إدراكهم وإهلاكهم.

وهم - أي الكفار - محل الحسبان ومتعلقه أيضًا؛ إذ نهي من يعاين حالة الكفار من المؤمنين عن حسبان أمنهم العقوبة، وإخلاف وعد الله بالانتقام منهم، كما جاء في آيتي النور وإبراهيم.

ويلحق بالكفار بنو إسرائيل؛ متبعو الهوىٰ ومكذبو الأنبياء وقتلتهم كما في آية المائدة، حسبوا حسبانًا أنزلوه منزلة العلم(٣) ألا يفتنون، أي: لا يؤخذون بالعقاب؛ غفلة منهم واغترارًا بما زعموه من تفضيلٍ عند الله، فكان ذلك سببًا لاستمرارهم علىٰ باطلهم، ولو لم يحسبوا ذلك لارتدعوا(٤).

وقد يجمع إليهم الفاسقون الذين يعملون السيئات من أهل الإيمان بظاهر وعموم آية العنكبوت(٥)، لا علىٰ اعتبار أنهم يشككون في لحاقهم العقوبة ويطمعون في الفوت، فإن ذلك يدخلهم في الكفر، بل لغفلتهم التي تدخلهم في شبه استخفاف الكفار وصورة من يقدر ذلك ويطمع فيه(٦)، وكذلك تقرأ آية البلد وإن صدقت علىٰ حال الكفار أولًا، إذ صورت شأنًا من شؤون الإنسان عامة إذا طغىٰ وتجبر

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني (ص: ٣٩٥).

(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص: ٦٤٦)، معجم مقاييس اللغة، لابن فارس (٤/ ٤٥٧).

(٣) ينظر: الكشاف، للزمخشري (١/ ٦٦٣).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور (٦/ ٢٧٥-٢٧٦).

(٥) ينظر: المحرر الوجيز، لابن عطية (٤/ ٣٠٦).

(٦) ينظر: الكشاف، للزمخشري (٣/ ٤٤٠)، ولعل هذا ما يفهم من توجيه صاحب الكشاف، وإن لم يشر لجواز أن يكون صاحب الحسبان من فساق أهل الإيمان.

وبطش، وحسب أنه خارج عن قبضة العقاب.

جواب الحسبان:

ورد دفع الحسبان إجمالًا في آية العنكبوت بذم حكمهم، قال تعالىٰ ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ لازمًا لنفي الحسبان، ومقررًا أن الجزاء يلحق بهم لا محالة، وقد عبر عن حسبانهم وظنهم بالحكم تهكمًا بهم؛ بأنهم نصبوا أنفسهم منصب الذي يحكم فيطاع[1].

ومن أسباب بؤس هذا الحكم تضمنه إنكار قدرة الله وحكمته، وظنه به ظنًا لا يرضونه لأنفسهم؛ لأن أضعفهم عقلًا لا يرضىٰ لعبيده أن يظلم بعضهم بعضًا ثم لا ينصف بينهم، ثم زعمهم لأنفسهم قدرة يمتنعون بها من عقاب الله، وهم أضعف شيء وأعجزه[2].

كما أجيب بالنفي الصريح في آية الأنفال، قال: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ في الدنيا - حتىٰ يغلبهم المؤمنون - وفي الآخرة[3]، وببيان العقوبة في آية النور، قال: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ المستلزمة نقض فوات عذاب الكفار، وجوابًا لمن يحسب ذلك مما يعاين حالهم لغلبتهم، وبالمعنىٰ نفسه جاء ختم آية إبراهيم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ مؤذنًا بأخذ الماكرين بهذا الدين أخذ عزيز مقتدر، ونصرة رسله، فإذا ما أراد عقابهم فإنهم لا يعجزونه، وهو ما لوح به تذييل آية المائدة، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ إذ اقتضىٰ إبصار الله لأعمالهم إنزال العقوبة بهم جزاءً وفاقًا، وكان مبدؤها في الدنيا، وهي عمايتهم وصممهم عن الحق.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٠/ ٢٠٧).

(٢) ينظر: نظم الدرر، للبقاعي(١٤/ ٣٩٢)، تيسير الكريم الرحمن، للسعدي(ص: ٦٢٦).

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٨/ ٣٣).

وبتحقيق هذا الفهم برد الحسبان تسليةٌ للنبي ﷺ وصحبه؛ في فوات أسرهم أو قتلهم في بعض المواقف كما في بدر(١)، وتثبيتًا للمؤمنين في كل عصر ومصر؛ بتأكيد نصرتهم علىٰ أعدائهم، فهم أضعف أن يعجزوا الله إذ هو معذبهم، وأضعف من أن يعجزوا المسلمين إذ الله ناصرهم.

وبهذا تعرف مناسبة ذكر أمر المؤمنين بالإعداد لقتال أعدائهم ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ في الأنفال عقب آية تصحيح المفهوم بإقرار عجز الكفار ونصرتهم عليهم، وكذلك تظهر علة بيان أدوات النصر وأسباب العدة؛ تمهيدًا لذلك التثبيت والوعد بالنصرة في آية النور ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦]. فمن تحصن بالصلاة والزكاة والطاعة؛ غشيته الرحمة، ومكن له في الأرض، وعلا بقوة إيمانه فوق كل متكبر، لا يعجز الله في الأرض، فإذا تمكنت حقيقة الإيمان من القلوب لم يدخل في قلوبهم شبهة أو مرجوح حسبان.

ويتفرع علىٰ ما سبق ما قد يحسبه الكفار أن إمهال الله لهم وعدم معاجلتهم بالعقوبة أمارة عفو، وأن تمتعهم بطيبات الدنيا وزينتها علامة رضا، وقد تعصف هذه الشبهة بقلوب بعض المؤمنين لمعاينتهم حال الكفار، وغلبة للباطل في الظاهر، فأتت الآيات الكريمة(٢) لتزيل هذه الشبهة، وترفع الوهم وتحقق الفهم بالنهي عن هذا الحسبان في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨]. وقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا

(١) ينظر: التفسير الكبير، للفخر الرازي (١٥/ ٤٩٨)، الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٢/ ٣٠١)، تفسير البحر المحيط، أبو حيان (٥/ ٣٤١).

(٢) ومن الآيات النظيرة التي ترفع هذا الوهم بغير حسب قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢ – ١٨٣]، وقوله: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤ – ٤٥].

يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

وإنكار حسبان أن إمدادهم المال والولد وسائر النعم دليل رضىٰ وإكرام في قوله: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥ – ٥٦].

جواب الحسبان:

كان دقيقًا مطنبًا، كما في آية آل عمران، علىٰ طريق التكرار والمقابلة، بيانًا مفصلًا؛ فقد حسب الكفار أن الإملاء لهم أي: إمهالهم علىٰ ما هم فيه، وتخليتهم وشأنهم، وتركهم واختيارهم، من «أملىٰ لفرسه» إذا أرخىٰ له الطول ليرعىٰ كيف شاء[(١)]. ليس إلا خيرًا لهم، بأمنهم القتل، إذ يعدونه شرًا، وتحصيلهم الظفر المؤقت كما في أحد، وعلامة لرضىٰ الله بحالهم واستقامة طريقتهم عنده[(٢)]؛ إذ عبروا بالقصر الحقيقي في ظنهم، فجاء الجواب بالأسلوب نفسه، وتكرار المقصور ذاته، بيانًا صريحًا برد الحسبان، فإملاؤهم مقصور علىٰ الشر المحض، وهو ازدياد الإثم إثمًا بعد إثم؛ بانغماسهم في غمرات النعم، واسترسالهم بالفسق، والتمادي عن الحق، دون نعمة الابتلاء الموقظة، التي حرموا منها، حتىٰ يلقوا العذاب المهين، في موعد مضروب يقدره الله؛ إهانة لهم بعد أن حسبوا الإملاء كرامة وعزًا، وأما الخير فهو ليس لهم بل لغيرهم من المؤمنين؛ إذ يكون الإملاء وطول الأجل سببًا للاستقامة والازدياد من العمل الصالح.

وكذلك صرح بالجواب في آية إبراهيم قال: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ وهو مقتض نفي حسبان أن تأخير الله الكفار وعدم مجازاتهم علىٰ ظلمهم

(١) ينظر: الكشاف، للزمخشري (١/ ٤٤٤).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز، لابن عطية (١/ ٥٤٦).

لنفسهم بالشرك أو ظلمهم لغيرهم لازمًا لغفلته عنهم؛ تثبيتًا لنفوس النبي ﷺ والمؤمنين في كونهم لا يحسبون الله غافلًا، وطريقًا للوصول إلىٰ لازمه من امتناع عدم انتقامه منهم؛ وعيدًا للظالم، وتعزية للمظلوم، ونهيًا لاستعجال عذاب ظالمه[(١)].

وقد ورد الجواب بصيغة القصر تأكيدًا وتقريرًا حيث قصر التأخير علىٰ محذوف؛ وهو العقاب المهول، بدلالة المذكور وكناية عنه، وهو زمنه، ومحله، في يوم لا تطرف فيه العيون لهول ما ترىٰ فيه.

وكذلك أتىٰ الجواب في آية المؤمنين ﴿بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ تهكمًا بهم إن هم إلا كالأنعام بل أضل، وسخرية من غفلتهم التي سقطت معها كل أحكامهم وتصوراتهم، ومنها: حسبانهم أن إمدادهم بالمال والولد ليس إلا مسارعة لهم في الخيرات، ومعاجلة في الثواب، ودليل رضىً؛ لأن الراغب في إرضاء شخص يكون متسارعًا في إعطائه مرغوبه[(٢)]، فأتىٰ الجواب المضرب قاطعًا لوهمهم، وخيبة لرجائهم، وملوحًا بعقابهم، الذي غاب عنهم، فما الإمداد إلا استدراجًا لهم إلىٰ المعاصي والآثام، وإنما مسارعة الخيرات، وأمارة الإكرام للمؤمنين الذين اتقوا ربهم، وشكروا نعمه، واستثمروا طول العمر بصالح العمل.

◆ ◆ ◆

(١) ينظر: التفسير الكبير، للفخر الرازي (١٩/ ١٠٨).

(٢) ينظر: تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور (١٨/ ٧٥).

المفهوم الثالث:
منفعة الكافر بعمله ومجازاته عليه

سجلت الآيات الكريمات نفي منفعة سعي الكافر وحسن جزائه عليه(١)، ونبهت بدفع الحسبان المرجوح إلىٰ حبوط أعمالهم؛ فلا وزن لها عند الله. قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف ١٠٣-١٠٥]. وقال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

صاحب الحسبان ومتعلقه:

هم الذين كفروا بآيات ربهم وبلقائه، كما فصّل في آية الكهف. أي: كفروا بدلائله الداعية إلىٰ التوحيد نقلًا وعقلًا، وبالبعث وما يتصل به من أمور الآخرة(٢). الأخسرون أعمالًا، الذين أتعبوا أنفسهم في أعمال تنوعت، وتنوقوها، وأعجبهم حسنها؛ رجوا فضلها وربحها، وحسبوا نفع ما صنعوا، وأنهم علىٰ شيء؛ فغفلوا، فلم يشعروا بضلال سعيهم وذهابه سدىٰ، وكانت طريقًا لهلاكهم؛ كالمشتري سلعة يرجو ربحًا فخسر بيعه، ووكس في الذي رجا فضله(٣).

---

(١) ومن الآيات النظيرة التي تصحح هذا الفهم بغير حسب: قوله تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨]. وقوله: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٥/ ٢٤٩).

(٣) ينظر: جامع البيان، للطبري (١٨/ ١٢٥)، معالم التنزيل، للبغوي (٣/ ٢٢١)، البحر المحيط، لأبي حيان (٧/ ٢٣٠).

واختلف في تعيينهم؛ فقيل: الرهبان المبتدعة، وقيل: كفرة اليهود والنصارىٰ، وقيل: الخوارج الحرورية[1]، والصواب كما رجح شيخ المفسرين التمثيل لا الحصر، حيث قال: «كل عامل عملًا يحسبه فيه مصيبًا، وأنه لله - بفعله ذلك - مطيع مرض، وهو بفعله ذلك لله مسخط، وعن طريق أهل الإيمان به جائر، كالرهابنة، والشمامسة[2]، وأمثالهم من أهل الاجتهاد في ضلالتهم، وهم مع ذلك من فعلهم واجتهادهم بالله كفرة، من أهل أي دين كانوا»[3]، فهم كل من دان بدين غير الإسلام، أو أقام علىٰ بدعة تؤول به إلىٰ الكفر[4].

وقد عبر عن ذلك الحسبان من الكافرين مجازًا في آية النور علىٰ طريق التشبيه التمثيلي؛ بما يقرر حبوط أعمالهم مع حسبانهم قبولها ونفعها، بجامع شدة الخيبة عند مسيس الحاجة، حيث شبه الذين كفروا وحسبانهم أن سعيهم وأعمالهم في الدنيا نافعة لهم في الآخرة، والحال أنهم يحاسبون عليها، ويلقون بها العذاب، في وقت ظنهم الفوز بظامئ اشتد عطشه، حسب التماع السراب في أرض فلاة منبسطة ماء يسرب أي يجري يرجو ريه، فلما عاينه لم يجده شيئًا أصلًا، لا محققًا ولا متوهمًا كما كان يراه من قبل، فضلًا عن وجدانه ماء، وكذلك أعمال من لا يعتقد الإيمان لا تستعقب ثوابًا[5].

---

(١) ينظر: جامع البيان، للطبري (١٨/ ١٢٦-١٢٧).

(٢) «والشَّمّاسُ من رؤساء النَّصارىٰ، الذي يحلق وسط رأسه لازمًا للبيعة، والجميع: الشَّمامِسة». كما في العين، للخليل (٦/ ٢٣٠).

(٣) جامع البيان، للطبري (١٨/ ١٢٧-١٢٨).

(٤) ينظر: البحر المحيط، لأبي حيان (٧/ ٢٣٠).

(٥) ينظر: أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ١٠٩)، إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٦/ ١٨١).

◆ جواب الحسبان:

حملت الآيات الكريمات ردًّا مفحمًا للحسبان الموهوم؛ فقد وسمت آية الكهف سعيهم المكدود في الدنيا بالضلال والبطلان؛ كمن أخطأ السبيل وسار في طريق غير موصلة[(١)]. باجتراحه أعمالاً باطلة علىٰ غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة[(٢)]، ثم صرحت بحبوط العمل وذهاب ثوابها سدىٰ، وأنهم لا تثقيل لموازينهم ولا مقدار ولا اعتبار، لأن مدارها علىٰ صالح العمل، وقد تقرر حبوط أعمالهم، وخلوها من الخير، فلا حسنات لهم توزن؛ لعدم وجود شرطها، وهو الإيمان[(٣)].

وكذلك تعصف آية النور بهذا الحسبان حقيقة بعد تقرير ذلك مجازًا تتمة لأحوال ذلك الكافر؛ فهي لا تتوقف عند الخيبة والقنوط كما هو شأن الظمآن، بل تبين غفلة الكافر عما ينتظره في الآخرة، حيث يجد الله له بالمرصاد، فيوفيه حساب أعماله، ويجزيه العذاب الأليم مما يؤكد بطلان الحسبان[(٤)].

◆ ◆ ◆

(١) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٦/ ٤٦).

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ٢٠٢).

(٣) ينظر: محاسن التأويل، للقاسمي (٧/ ٨٠)، تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص: ٤٨٨).

(٤) ينظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٦/ ١٨١).

المفهوم الرابع:
وجود الأولياء ونصرتهم من دون الله

حسب الكفار وهمًا أن ثمة ناصرًا ووليًّا من دون الله[(١)]، وأنهم بذلك في درب الهداية سائرون، فأنكر هذا الحسبان في قوله: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾ [الكهف: ١٠٢]. وبالخبر عنهم ذمًّا في قوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠]، وقوله: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ۝٣٦ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦ – ٣٧].

صاحب الحسبان ومتعلقه:

هم الكفار، الذين اتخذوا عباد الله ومن هم تحت قبضته وسلطانه أولياء، ينصرونهم من دون الله، وينجونهم من عذاب الله، كما عممت آية الكهف، وقيل: إنهم الملائكة أو الأنبياء كعزير والمسيح[(٢)]، وقيل: إنهم الشياطين أو الأصنام

---

(١) ونظائر القرآن التي ترفع وهم تحقق الولاية مع الله بغير حسب كثيرة منها: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ١١٩]. وقوله: ﴿وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١]. وقوله: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ﴾ [الأنعام: ٧٠]. وقوله: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣]، وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٢٦].

(٢) ينظر: جامع البيان، للطبري (١٨/ ١٢٤).

تغليبًا[1]، والأول أظهر؛ لأن مثل هذه الإضافة للتشريف غالبًا[2]، أو اتخذوا الشيطان وليًا كما خص في آيتي الأعراف والزخرف.

وقد حسبوا استحقاقهم للولاية، وأنهم أسبابًا للهداية والنفع، قولًا بلا علم وعملًا من غير فهم.

◆ جواب الحسبان وعاقبته:

بيّن النّظم الكريم بطلان دعوى الكافرين وحسبانهم باتخاذ الأولياء بلازم ذكر العاقبة كما في آية الكهف، فقد أُعدت جهنم وهُيئت لاستقبالهم كما يُستقبل الضيوف، وليس في جهنم إكرامٌ لضيفٍ أو قادم؛ لكنه التهكم، كنحو: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وليس هو من البشرى في شيء، فلو كان ما فعلوه حقًا، وما حسبوه صدقًا؛ لما كانت لهم جهنم منزلًا.

وفي ذلك – أيضًا – تقرير لإنكار انتفاعهم بأوليائهم؛ ببيان أن لا محيص لهم عن جهنم[3]، ثم كيف يوالي ولي الله –من الملائكة والنبيين الذين يحسب ويزعم هؤلاء الكفار أنهم اتخذوهم أولياء من دون الله– معاديا لله؟! فإن الأولياء موافقون لله في محبته ورضاه، وسخطه وبغضه[4].

ومما يؤكد بطلان من حسب اتخاذ أولياء من دون الله – ومنهم الشياطين – يعينونهم على كفرهم وينقادون إلى وسوستهم مظهرًا للهداية والطريق القويم، وسمهم بالضلال؛ قال في الأعراف: ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ إذ كان اتباعهم

(١) ينظر: التفسير البسيط، الواحدي (١٤ / ١٦٣).

(٢) ينظر: أضواء البيان، الشنقيطي (٣/ ٣٤٨-٣٤٩).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٦/ ٤٤).

(٤) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص: ٤٨٧).

للشيطان سببًا للخذلان لا الهداية؛ فاستحقوا الخسران المبين بتركهم الطريق الموصل إلىٰ الهدىٰ.

وقريب من ذلك ما تقرره آيات الزخرف من وَهَم من ضلّ عن طريق الهداية، وأعرض عن ذكر الله فقيض له شيطانًا مقارنًا فألزمه طريق الغواية، يحسب أنه مهتد في اتباعه وتوليه بما زين له الشيطان وألبس عليه الحق، إذ الشّيطان عدوّ مبين، يصد عن السبيل المستقيم والدين القويم، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فلو كان ما اتخذوه وليًا حقًا لما صدهم عن السبيل، ولتلبسوا بعادة الأولياء من العون والنصرة والدلالة علىٰ الصراط المستقيم.

المفهوم الخامس:

انتفاء غاية الخلق واستبعاد البعث

زخر القرآن بتثبيت العقائد الإيمانية في نفوس المؤمنين، ومنها: إثبات البعث والرد علىٰ منكريه، وقد أسهم إنكار الحسبان في الآيات الكريمات، بتحقيق هذا الفهم الصحيح، والتنبيه إلىٰ الظن الموهوم في انتفاء غاية الخلق واستبعاد البعث[(١)]، قال تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥ - ١١٦]. وقال: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: ٣ - ٤] وقال: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٦ - ٤٠].

صاحب الحسبان ومتعلقه:

هم الناس عامة؛ تنبيهًا وتحذيرًا أن يحسبوا أنهم خلقوا بلا قصد ولا إرادة، سدىٰ وهملًا، وأنهم متروكون غير مأمورين بالطاعة والعبادة، غير مرجوعين إلىٰ ربهم - بعد موتهم وبلي عظامهم وتفرقها - للحساب ثوابًا أو عقابًا، والكافر خاصة

---

(١) ونظائر القرآن التي ترد علىٰ منكري البعث بغير تسجيل حسبانهم الباطل كثيرة منها: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود: ٧]، وقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٣٨]، وقوله: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٤٨]، وقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨ - ٧٩].

إنكارًا وتوبيخًا لصدور هذا الحسبان عنه، وقد جاء بأسلوب الحصر (أنما) في آية المؤمنون في قوله: ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾، وبتأكيد النفي ب(لن) في آية القيامة في قوله: ﴿أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ بيانا لتقرره في نفس صاحبه وهمًا متمكنًا.

جواب الحسبان:

افتتح ردّ الحسبان في سورة المؤمنين بتنزيه الله تعالىٰ وتعاظمه اللازم لاستحالة تحقق هذا الحسبان في حقه وجنابه، قال السعدي: «﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ أي: تعاظم وارتفع عن هذا الظن الباطل، الذي يرجع إلىٰ القدح في حكمته. ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ فكونه ملكًا للخلق كلهم، حقًا في صدقه ووعده ووعيده، مألوهًا معبودًا لما له من الكمال ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ فما دونه من باب أولىٰ = يمنع أن يخلقكم عبثًا.»[١]، فالعبث هو الخلق بلا بعث، فالخلق دليل البعث وإنما خلق الله الناس ليتعبدهم، ويعيدهم ليجازيهم علىٰ أعمالهم[٢].

ثم أبطل هذا الحسبان في سورة القيامة بحجج دامغات هي:

- القادر علىٰ الخلق الأعظم قادر علىٰ ما هو دونه:

فالله الذي تجلت قدرته وعظمته في إعادة التكوين الإنساني بأدق ما فيه - وهو تسوية البنان وهو طرف الإصبع، فيعيد السلاميات علىٰ صغرها فهي أصغر العظام، ويؤلف بينها حتىٰ تستوي مقومة متقنة - قادر علىٰ جمع الكبار من باب أولىٰ، وهي العظام البالية المتفرقة في الثرىٰ التي تذروها الرياح[٣]، والعظام كناية عن

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص: ٥٦٠).

(٢) ينظر: أنوار التنزيل، للبيضاوي (٤/ ٩٧)، إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٦/ ١٥٣).

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٩/ ٩٤).

الجسد كله، وإنما خصت بالذكر؛ لأن العظام قالب الخلق ومعتمده(١)، ولحكاية أقوال المشركين في آيات أخر كقولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩]، وقولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ [النازعات: ١١] ونحوها فقد احتجوا باستبعاد إعادة العظام بعد البلىٰ علىٰ استحالة إعادة اللحم والعصب من باب أولىٰ، فجاء إبطال زعمهم بإثبات إعادة العظام وهو لازم لإعادة بقية الجسم، وفي ذلك كفاية في الاستدلال مع الإيجاز(٢).

- القادر علىٰ البدء قادر علىٰ الإعادة:

فبدأ خلق الإنسان من ماء مهين، وسيره في أطوار خلقه: من النطفة - بقدرة الله - إلىٰ العلقة، ثم إلىٰ المضغة المخلقة وغير المخلقة كما فصّل في آيات أخر، ثم سوي هذا الخلق وعدل وكملت نشأته بنفخ الروح ﴿فَجَعَلَ مِنۡهُ﴾ من الإنسان ﴿ٱلزَّوۡجَيۡنِ﴾ أي الصنفين ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ دليل علىٰ إثبات القدرة علىٰ إنشائه إنشاء ثانيًا بعد تفرق أجزائه واضمحلالها، فمن أنشأ هذا الخلق البديع قادر علىٰ إعادته فهو أهون من البدء في قياس العقل. وخلق جسم الإنسان من عدم، وهو أمر ثابت، أحق بالاستبعاد من إعادة الحياة إلىٰ الجسم بعد الموت، سواء بقي أو فني(٣).

(١) ينظر: المرجع نفسه (١٩/ ٩٣).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٩/ ٣٤٠).

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٩/ ٦٩)، تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٩/ ٣٦٨).

المفهوم السادس:
انقطاع حياة الشهداء وفوات نعيمهم بعد الموت

ينبه الحسبان المؤكد المنهي عنه هنا إلىٰ خطأ مجرد مظنة انقطاع حياة الشهداء بعد الموت فضلًا عن الجزم بذلك، ويحقق التصور السديد للحياة والموت، الذي يثمر قيمة عظمىٰ في تقدير الأمور، واستقبال الموت بقلوب مطمئنة راضية بأقدار الله، فكانت الآية أحسن تعزية للنبي ﷺ ومن معه، ولكل المؤمنين، عمن قتل منهم في سبيله وألطفها، وأدعاها إلىٰ الرضىٰ بما قضاه لهم[1]. قال تعالىٰ[2]: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١].

وقد تقرر هذا التصور السديد، وتلك الحقيقة الكبرىٰ في نفوس الصحب الكريم أن نعيمًا بعد موت كلا موت؛ فلا حزن ولا ألم، فها هي أم حارثة جَاءَتْ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ عَرَفْتَ مَنْزِلَةَ حَارِثَةَ مِنِّي، فَإِنْ يَكُنْ فِي الْجَنَّةِ أَصْبِرْ وَأَحْتَسِبْ، وَإِنْ تَكُ الْأُخْرَىٰ تَرَىٰ مَا أَصْنَعُ، فَقَالَ: «**وَيْحَكِ، أَوَ هَبِلْتِ، أَوَ جَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ، إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ فِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ**»[3].

فكانت الآية جوابًا للجبناء المثبطين عن الجهاد من أهل النفاق، يبثون الظنون

---

(١) ينظر: زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم (٣/ ٢١٥).

(٢) وقد حقق القرآن هذا المفهوم بغير حسب في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

(٣) الصحيح، للبخاري - كتاب المغازي - باب فضل من شهد بدرًا، ٥/ ٧٧ ح ٣٩٨٢.

والحسرات، مدعي حرص قالوا: ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾ نعيًا على من استجاب لأمر الله ورسوله، واختار أن يشتري نفسه ويقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، يسمونهم بالخسران وهم في ربح عظيم مبتدأه أول دفقة من دمائهم الزكية.

وإذا أردنا تأمل متعلق الحسبان وجوابه، نقف على تحقيق المفاهيم الآتية: انتفاء موت الشهداء، وإثبات حياتهم، وتحليهم بخصائص الأحياء والنعيم المقيم.

فأما انتفاء موتهم، فلا يعنى نفي الموت الظاهري عنهم، وما يجري على الموتى من مفارقة الحياة الجسد، ودفنهم في التراب، وتقسيم أموالهم، ونكاح نسائهم، وقد قضى عليهم بهذا الموت، وأثبته لهم بوصف القتل إطنابًا وتسجيلًا باسم الموصول، فكل خلق مصيره للموت والفناء، بل هو نفي للموت باعتبار أن ما بعده عدم، يتركون سدى لا يحسون شيئًا، ولا يلتذون، ولا ينعمون(١).

وأما إثبات حياتهم فكان بيانًا لنفي موتهم وتأكيدًا له بالإضراب والجملة الإسمية، حياة لا ندرك أطرافها، ولا نعلم عن كنهها، إلا بما علمنا إياه العليم الخبير في مثل هذه الآية، بذكر جملة من خصائص هذه الحياة وعلاماتها، وبما أوحي إلى نبيه في أحاديث ثابتة؛ أن حياتهم في جوف طيور خضر، حياة محققة لا معنوية، كما عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: سَأَلْنَا عَبْدَ اللهِ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]. «قَالَ: أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلَاعَةً ...»(٢).

قال الإمام الواحدي: الأصح في حياة الشهداء ما روينا عن النبي ﷺ: أن

---

(١) ينظر: جامع البيان، للطبري (٧/ ٣٨٤)، تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، (ص: ١٥٦).

(٢) الصحيح، لمسلم - كتاب الإمارة - باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة، ٦/ ٣٨ ح ١٨٨٧.

أرواحهم في أجواف طير، وأنهم يرزقون ويأكلون ويتنعمون.[١]»، و«قال القرطبي: «وهذا هو الصحيح من الأقوال، لأن ما صح به النقل فهو الواقع»[٢]. وهي حياة في الحال، أي: حال قتلهم، لا في المآل، أي: يوم القيامة، قال أبو حيان: «والظاهر أن المراد حقيقة الموت والحياة..... وأكثر أهل العلم على أنهم أحياء في الوقت»[٣].

ويفهم من قيد العندية ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، وتقديمه على عامله، أنها حياة مفارقة لحياتهم قبل الموت في حكم الله ووفق علمه، كما أنها عنوان على كمال القرب من ربٍّ كريمٍ منعمٍ، وفي إضافته إليهم مزيد إكرام كما لا يخفى.

ويلح سؤال في هذا المقام؛ أن الحياة بعد الموت أمر ثابت للبشر جميعًا: كافرهم ومؤمنهم، وقد نطق بذلك كثير من الأحاديث النبوية في تنعم الروح الطيبة وعذاب الخبيثة؛ منذ خروجها من الجسد، في رحلة النعيم أو العذاب في البرزخ، فما الوجه في خصوصية الخبر عن الشهداء؟

وقد أجاب شيخ المفسرين عن ذلك بقوله: «إن الذي خص الله به الشهداء في ذلك، وأفاد المؤمنين بخبره عنهم – تعالى ذكره – إعلامه إياهم أنهم مرزوقون من مآكل الجنة ومطاعمها، في برزخهم قبل بعثهم، ومنعمون بالذي ينعم به داخلوها بعد البعث من سائر البشر، من لذيذ مطاعمها الذي لم يطعمها الله أحدًا غيرهم في برزخه قبل بعثه»[٤]. أي: فضلوا بالرزق في الجنة وعجل لهم من وقت القتل، حتى

(١) التفسير الوسيط (١/ ٥٢١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٤/ ٢٦٨)، وهو سبب نزول هذه الآية على القول الراجح، ينظر المحرر في أسباب النزول، خالد المزيني ص٣٣٤-٣٣٥.

(٣) البحر المحيط، لأبي حيان (٢/ ٥٢) وينظر تفصيل إثبات ذلك في التفسير الكبير، للفخر الرازي (٩/ ٤٢٦).

(٤) جامع البيان، للطبري (٣/ ٢١٦).

كأن حياة الدنيا دائمة لهم[(١)].

وقد ثبتت هذه الحياة بجملة من خصائص الاحياء، وهي:

- الرزق: فـ﴿يُرۡزَقُونَ﴾ دلالة على الحياة، وعلامة للتنعم بألوان العطايا المستمرة المقدرة في علم الله؛ إذ حذف متعلقها.

- الفرح: ﴿فَرِحِينَ﴾ فهم مسرورون بما أتاهم الله من فضله، في توفيقهم إلى الشهادة، وما ساق إليهم من الكرامة واللذة والتفضيل على غيرهم، من كونهم أحياء مقرّبين، معجلًا لهم رزق الجنة ونعيمها، وهو من فضل الله عليهم، لا بما أتوه من عمل[(٢)]، فجمعوا بذلك بين النعيم الحسي بالرزق، والنعيم المعنوي بالغبطة والسرور.

الاستبشار: وليس هي هنا طلب البشرى، بل التلبس بالفرح والسرور للبشرى[(٣)]، وقد كرر الاستبشار لاختلاف متعلقه.

فالأول: استبشار من أجل غيرهم؛ بلحاق إخوانهم المؤمنين الذين تركوهم في الدنيا لم يلتقوا بهم إن ماتوا أو قتلوا في تحقق النعيم وطمأنينة النفس، فلا خوف على ما سيأتيهم من أحوال القيامة، ولا حزن على ما فات من نعيم الدنيا[(٤)]، وهي حال المبشرين أيضا وقد تكون بشرى بتحقيق النصر على أيدي إخوانهم «وفي ذكر حال الشهداء، واستبشارهم بمن خلفهم، بعث للباقين بعدهم على ازدياد الطاعة،

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز، لابن عطية (١/ ٥٤٠)، الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٤/ ٢٦٨).

(٢) ينظر: الكشاف، للزمخشري (١/ ٤٣٩).

(٣) الكشاف، للزمخشري (١/ ٤٤٠).

(٤) ينظر: التفسير الكبير، للرازي (٩/ ٤٢٦).

والجد في الجهاد، والرغبة في نيل منازل الشهداء وإصابة فضلهم، وإحماد لحال من يرىٰ نفسه في خير فيتمنىٰ مثله لإخوانه في الله»[(١)].

والثاني: استبشار متعلق بهم بمزيد من الكرامة والفضل، كما قال ﷻ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[(٢)]، وفيه دليل علىٰ اتساع النعم، وأنها ليست كنعم الدنيا[(٣)]. فعظمة الثواب بعظم المثيب المتفضل، ثم وسموا بوسم الإيمان للإيذان بسمو رتبة الإيمان، وكونه مناطًا لما نالوه من السعادة وعلو المقام وتوفية الأجور؛ وهذا من تمام البشرىٰ[(٤)]، فلا يبقىٰ بعد هذا البيان، في فوات نعيم الشهيد بعد موته شك وحسبان.

---

(١) ينظر: الكشاف، للزمخشري (١/ ٤٣٩).

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٢/ ١١٣).

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٤/ ٢٧٥).

(٤) ينظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٢/ ١١٣).

المفهوم السابع:
كنز المال غنيمة لصاحبه، وطريق خلوده

ويأتي النهي المؤكد لمن يعاني خللًا في تقدير القيم، ويخلط بين الغايات والوسائل فيعلو بقيمة المال فوق كل قيمة، يحسب أن كنزه والضنة به غنيمة قال تعالىٰ[(١)]: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وقد تفهم الآية علىٰ أنها نهي لحسبان من يحضر البخيل؛ فيظن أن في بخله خيرًا له، فتحقق فهمه في دفع ذلك[(٢)]، وقد يعين البخيل المتحدث عنه بسباق الآية بأهل النفاق الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل، وقد تنصلوا هنا من دفع النفقة في سبيل الله بغزوة أحد بمعاذير قبلت منهم في الدنيا[(٣)]، أو بلحاقها باليهود بما بخلوا من مال أو كتموا من علم، والحمل علىٰ العموم في كل بخيل مانع لحق الله، والنهي عن حسبان أنه علىٰ خير، أولىٰ[(٤)].

---

(١) ومن نظائر هذا الاغترار بالمال وعده الظفر الأكبر بغير حسب، قوله تعالىٰ: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩].

(٢) وهي المعاني علىٰ قراءة يحسبن بالياء وهي: أن يكون فاعل يحسبن ضمير رسول الله ﷺ، أو ضمير أحد، والتقدير: ولا يحسبن رسول الله أو لا يحسبن أحد بخل الذين يبخلون خيرا لهم. الثاني: أن يكون فاعل يحسبن هم الذين يبخلون. ينظر التفسير الكبير، للفخر الرازي (٩/ ٤٤٣)، و إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، ص: ٢٣٢-٢٣٣.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور(٤/ ١٨٠).

(٤) ينظر: التفسير الكبير، للفخر الرازي (٩/ ٤٤٥).

وقد بلغ هذا القبح والخبط شأوه فيمن يجعل المال غاية، ويحسب جمعه طريقًا لخلوده في هذه الدنيا، قال تعالىٰ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ [الهمزة: ١ - ٣].

وأما **متعلق الحسبان** في بيان حال البخيل وتخطئته في توهم خيريته، والوعيد علىٰ ذلك في النصين الكريمين فيظهر بما يأتي:

أولًا: بيان حال البخيل ومتعلق البخل

سجل تأصل بخل البخيل وجمعه للمال دون تأدية حقه، وبيان العلة باستخدام الاسم الموصول في النصين، وأبهم متعلق البخل في آية آل عمران، قال تعالىٰ: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، وعيّن في آية الهمزة ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾، وهو عائد إلىٰ فاعل يحسب المقدر، ودل الإبهام علىٰ معان منها: قبح فعل البخيل؛ إذ يبخل بما هو عطية من الله، ومن لوازم فضل الله ورحمته، ويبخل بما ليس ملكه بل هو مستخلف عليه قال تعالىٰ: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، وكان أحرىٰ بمن هذا حاله أن يتسع بذله في سبيل الله(١).

وقد اختلف في تعيين متعلق البخل أهو المال، أم علم كتمه اليهود - وهو نبوة النبي ﷺ - والراجح: أنه المال؛ لما جاء في البيان النبوي فيما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ، مُثِّلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ، لَهُ زَبِيبَتَانِ، يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَيْهِ، يَعْنِي شِدْقَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ، ثُمَّ تَلَا:** ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ الآيَةَ(٢)، وفي مسند ابن أبي شيبة عن حجير بن بيان، قال: قال النبي ﷺ: ما من ذي رحم

(١) ينظر إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٢/ ١٢٠).

(٢) الحديث في الصحيح، للبخاري - كتاب الزكاة - باب إثم مانع الزكاة، ٢/ ١٠٦ ح ١٤٠٣.

يأتي ذا رحمه فيسأله من فضل ما أعطاه الله إياه فيبخل عنه إلا أخرج له يوم القيامة شجاع يتلمظ حتىٰ يطوقه ثم قرأ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران:١٨٠]. قال الإمام الطبري: «وأولىٰ الأقوال بتأويل هذه الآية، التأويل الذي قلناه في ذلك في مبدأ قوله: «سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ»[(١)]، للأخبار التي ذكرنا في ذلك عن رسول الله ﷺ، ولا أحد أعلم بما عنىٰ الله ﷻ بتنزيله، منه ﷺ»[(٢)]، ومما يقوي أنه المال: أن هذا هو الظاهر في معنىٰ البخل، قال ابن عاشور: «فهو الانقباض عن إعطاء المال بدون عوض، هذا حقيقته، ولا يطلق علىٰ منع صاحب شيء غير مال أن ينتفع غيره بشيئه بدون مضرة عليه إلا مجازًا»[(٣)]، ولأنه طريق لإجراء الظاهر في الوعيد المترتب أيضًا، وعدم تحمل المجاز في كونه مثلًا للإثم اللازم لا التطويق حقيقة[(٤)]، وكذلك مناسبة السياق والتئام النظم؛ قال الرازي في أسباب الترجيح: «أنا لو حملنا هذه الآية علىٰ المال كان ذلك ترغيبًا في بذل المال في الجهاد فحينئذ يحصل لهذه الآية مع ما قبلها نظم حسن، ولو حملناها علىٰ أن اليهود كتموا ما عرفوه من التوراة انقطع النظم، إلا علىٰ سبيل التكلف، فكان الأول أولىٰ»[(٥)]. وقد يدخل غير المال كالعلم والجاه قياسًا لا تخصيصًا.

والمقصود بالبخل هنا منع المال الواجب - لا المندوب - كالزكاة الواجبة

(١) يعني بذلك قوله في مبتدأ ما نقله من أقوال الخلاف «يعني بقوله جل ثناؤه: «سيطوقون»، سيجعل الله ما بخل به المانعون الزكاة، طوقا في أعناقهم كهيئة الأطواق المعروفة » جامع البيان، للطبري (٧/ ٤٣٣).

(٢) جامع البيان، للطبري (٧/ ٤٤٠).

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور(٤/ ١٨٢).

(٤) ينظر: التفسير الكبير، للفخر الرازي (٩/ ٤٤٣)، المحرر الوجيز، لابن عطية (١/ ٥٤٧).

(٥) التفسير الكبير، للفخر الرازي (٩/ ٤٤٣).

والنفقة الواجبة كما ظهر في الأحاديث السابقة، ولمناسبة ترتب الوعيد الشديد عليه؛ إذ لا يعاقب المرء علىٰ تركه مندوبًا أو تطوعًا، والله أعلم.

وصرح بالشيء الذي ضن به وهو المال في آية الهمزة، ولحظ معنىٰ البخل والكنز في قوله: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ قال الطبري: «الذي جمع مالًا وأحصىٰ عدده، ولم ينفقه في سبيل الله، ولم يؤد حق الله فيه، ولكنه جمعه فأوعاه وحفظه»[1].

ثانيًا: تسجيل الجرم وعظم العقوبة

سجلت حوبة هذا البخيل في آية آل عمران؛ بإثبات شر عمله، وإن كان مفهومًا مما سبقه من نفي الخيرية والمنفعة، وذلك للمبالغة في تأكيد شريته فهو شر في دينه، وربما في دنياه[2]، وفي مآله يوم الدين جزاء وفاقًا؛ إذ توعدهم بطوق يكون سببًا لعذابهم، ويمكن أن يكون الطوق طوقًا من نارٍ يجعل في أعناقهم، ونظيره قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤ - ٣٥][3].. فلا يبقىٰ معهم إلا الحسرة والندامة، فالعاقل من يدخر لنفسه عند الله، وينفق مما استخلفه عليه؛ ابتغاء مرضاته؛ إذ علم أنّ لله - لا لغيره - ميراث السموات والأرض، وله الملك الباقي إذ يفنىٰ الجميع.

وظهر كبر هذا الإثم في سورة الهمزة؛ إذ طول المال أمله ومناه الأماني البعيدة، حتىٰ أصبح لفرط غفلته وطول أمله يحسب أن المال تركه خالدًا في الدنيا لا يموت،

(١) جامع البيان، للطبري (٢٤/ ٥٩٨).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٧٤)، إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٢/ ١٢٠).

(٣) ينظر: التفسير الكبير، للفخر الرازي (٩/ ٤٤٤).

وقد تمكن هذا منه كأنه وقع، فعبر عنه بالماضي، أو أنه انغمس بزخارف الحياة وبهرجها وشيد وعمر كمن يظن أن ماله يبقيه حيًّا، أو أحب ماله حبًا جمًا فاعتقد إن انتقص مات وإن بقي علىٰ تمامه صار حيًّا، وقيل: هو تعريض بالعمل الصالح أنه هو من يخلد صاحبه في النعيم المقيم لا المال(١).

وقد أسلمه هذا البخل إلىٰ ما فيه وباله، فكانت عاقبة أمره بالردع والتهديد؛ بالنبذ والإلقاء في نار تحطم وتكسر كل ما وقع فيها مهانًا بعد أن اعتقد أنه من أهل الكرام، نار لا يدرك كنهها، ولا تنالها عقول الخلق، وحسب تهويل أمرها إضافتها إلىٰ الله ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾ لا تزال تلتهب ولا يزول لهيبها، تغشىٰ الأفئدة - وهي ألطف ما في الجسد وأشده تألما بالأذىٰ - مطبقة علىٰ أصحابها موثقين فيها بالأصفاد لا يجدون عنها محيصًا(٢)، وليس بعد وخامة عاقبة البخيل توهم في خيرية فعله أو حسبان.

(١) ينظر: الكشاف، للزمخشري (٤/ ٧٩٥)، التفسير الكبير، للفخر الرازي (٣٢/ ٢٨٥)، إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٩/ ١٩٨).

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٩/ ١٩٩).

المفهوم الثامن:

تماثل الضدين، والمساواة بين المحسن والمسيء

أنكر الله علىٰ من قضىٰ باتحاد مقام المحسن والمسيء، والمساواة بينهما بحسبان مرجوح، ألا ساء ما يحكمون(١)، قال تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١-٢٢].

وبالتأمل في الآيات الكريمة نقف علىٰ بيان الحسبان المنكر علىٰ أصحابه، ثم الجواب الحاسم في رده.

صاحب الحسبان:

هم الذين اجترحوا السيئات وأساؤوا التصور والتقدير لقيمة أنفسهم ووزن أعمالهم، ليصلوا إلىٰ التسوية وإنكار المفارقة بينهم وبين المؤمنين الذين يعملون الصالحات، أخذتهم العزة بالإثم، وتعاموا بزهوهم وغرور نفوسهم الأمارة عن قيمة العمل في الحكم والاعتبار، وليت شعري هل يقدس الإنسان إلا عمله؟!

ومجترح السيئات هو من عمل بها وكسبها، وإنما سمي ذلك اجتراحا؛ لأنه

---

(١) ومن نظائر هذه الآية التي تقرر انتفاء تماثل السعداء والأشقياء بغير حسب قوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٢ - ١٦٣]. وقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [السجدة: ١٨]، وقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] وقوله: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠] وقوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥ - ٣٦]، وقوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤].

عمل بالجوارح، وهي الأعضاء الكواسب[1]، وعني به هنا الكافر بدليل ذكر الإيمان في قبيله[2]، ولمناسبة هذه الآيات لما قبلها إذ كانت حديثًا مسلسلاً عن تكذيب الكفار بآيات الله واستهزائهم بها، إلىٰ وصف صنف آخر من ضلالتهم واستهزائهم بالوعد والوعيد، وإحالتهم الحياة بعد الموت والجزاء علىٰ الأعمال، وحسبانهم التسوية بينهم وبين المؤمنين، ولأن اكتساب السيئات من شعار أهل الشرك إذ ليس لهم دين وازع يزعهم عن السيئات، ولا هم مؤمنون بالبعث والجزاء، فيكون إيمانهم به مرغبا في الجزاء[3].

وقد ينزل المجترح علىٰ العاصي المسرف علىٰ نفسه من أهل الإيمان، فتكون المعادلة بالاجتراح وعمل الصالحات، ويكون الإيمان في الفريقين، وهذا ما لمحه العارفون تدبرًا لرسائل هذا الكتاب العظيم؛ إذ روي عن الربيع بن خيثم أنه كان يرددها ليلة جمعاء، وكذلك عن تميم الداري وعن الفضيل بن عياض، وكان يقول لنفسه: ليت شعري من أي الفريقين أنت؟! حتىٰ سميت هذه الآية بمبكاة العابدين[4].

متعلق الحسبان:

يُعِين توجيه القراءات المتواترة في بيان المعاني المحتملة، في حدود المفارقة بين حال مجترحي السيئات والمؤمنين الذين يعملون الصالحات[5]، فعلىٰ قراءة النصب

(١) ينظر: مقاييس اللغة، لابن فارس (١/ ٤٥١).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز، لابن عطية (٥/ ٨٥).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور(٢٥/ ٣٥١-٣٥٢).

(٤) ينظر: الكشاف، للزمخشري (٤/ ٢٩٠)، المحرر الوجيز، لابن عطية (٥/ ٨٥)، البحر المحيط، لأبي حيان (٩/ ٤٢١).

(٥) قرأ حمزة والكسائي وحفص سواء محياهم بالنصب، وقرأ الباقون سواء بالرفع ينظر القراءات وتوجيهها، ينظر: إيضاح الوقف والابتداء، للأنباري (٢/ ٨٩١) ومعاني القراءات، للأزهري (٢/ ٣٧٦).

لـ ﴿سَوَآءً﴾ تدخل ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ في إنكار حسبان أن يستوي المحسنون والمسيئون محيًا، وأن يستووا مماتًا، لافتراق أحوالهم في الكرامة والإهانة، ومحاسن الأحوال ومساويها؛ حيث عاش هؤلاء على الهدى والعلم وسنن الرشاد وطمأنينة القلب في عز الإيمان وكرامة الطاعة، فاستحقوا ولاية الله ونصره، وأولئك على الضلال والجهل والفساد واضطراب القلب وضيق الصدر في ذل الكفر وإهانة المعصية، فكان الظالمون بعضهم أولياء بعض. ومماتًا؛ حيث مات هؤلاء على البشرى بالرحمة والوصول إلى ثواب الله ورضوانه، وفي القيامة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨ - ٣٩] وأولئك على اليأس من رحمة الله والوصول إلى هول ما أعدّ لهم، ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [وعبس: ٤٠ - ٤١](١).

وقيل: معناه إنكار أن يستووا في الممات كما استووا في الحياة، وأن يعطى المجترحون في الآخرة كما أعطوا في الدنيا ما أعطي المؤمنون من الرزق والصحة والكفاية، وعلى قراءة رفع (سواء) يكون المعنى تتميمًا لإنكار حسبان التسوية بتقرير اختلافهم في المحيا والممات أي: أن محيا المسيئين ومماتهم سواء، وكذلك محيا المحسنين ومماتهم، كل يموت على حسب ما عاش عليه(٢).

◆ رد الحسبان ودفعه:

ولم يكتف النّظم القرآني بإنكار الحسبان المتوهم سبيلًا لدفعه، بل جاء بجواب حاسم في ذلك إجمالًا وتفصيلًا:

-الجواب المجمل: تصريح قاطع بإنكار حكم التسوية ووسمه بالسوء

(١) ينظر: الكشاف، للزمخشري (٤/ ٢٩٠)، التفسير الكبير، للفخر الرازي (٢٧/ ٦٧٦-٦٧٧)، الدر المصون، للسمين الحلبي (٩/ ٦٥١)، إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٨/ ٧٢)، محاسن التأويل، للقاسمي (٨/ ٤٣٠).

(٢) ينظر: الكشاف، للزمخشري (٤/ ٢٩٠)، حجة القراءات، لابن زنجلة (ص: ٦٦١)، التفسير الكبير، للفخر الرازي (٢٧/ ٦٧٦-٦٧٧).

﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ بئس هذا الحكم الذي يخالف حكمة الحكم العدل، وينافي ما نزلت به الشرائع، وأخبر به الرسل، ويناقض العقول السليمة والفطر المستقيمة(١)، بل الحكم الواقع أن لا تسوية بين المحسن والمسيء في العاجل والآجل، بل لا يسوىٰ بين المحسنين أنفسهم فيعطون علىٰ قدر إحسانهم، كما يعذب المسيئون بقدر ظلمهم وفجورهم.

- الجواب المفصل بالدليل:

١-وهو قيام أمر هذا الكون علىٰ نظام الحق والعدل ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ الذي من لوازم هذا الحق حصول التفاوت في الدرجات والدركات بين المحقين وبين المبطلين. قال الطبري: «فلم يخلق الله السموات والأرض للظلم والجور، ولكنا خلقناهما للحق والعدل. ومن الحق أن نخالف بين حكم المسيء والمحسن في العاجل والآجل»(٢).

٢-جعل الجزاء الأوفىٰ تعليلًا للخلق بالحق والعدل ﴿وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ فلا يتصور بعدها أن يبخس المحسن ثواب إحسانه، ونحمل عليه جرم غيره فنعاقبه، أو نجعل للمسيء ثواب إحسان غيره فنكرمه، أو نسوي بين المحسن والمسيء ولكن لنجزي كلا بما كسبت يداه، وذكر الجزاء عنوان علىٰ العدل، فالمجازىٰ غير مظلوم، بل مجزي بما قدمته يداه(٣).

وهنا يحقق الفهم أن التسوية بين المتناقضات ضرب من الهذيان؛ فالليل لا كالنهار، والظلمة لا كالنور، والكفر ليس كالإيمان، والمعصية ليست كالطاعة، ميزان حق ولواء عدل فلا يبقىٰ بعد ذلك وهم أو حسبان.

---

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص: ٧٧٧).

(٢) جامع البيان، للطبري (٢٢/ ٧٥)، وينظر التفسير الكبير، للفخر الرازي (٢٧/ ٦٧٧).

(٣) ينظر: جامع البيان، للطبري (٢٢/ ٧٥)، التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٥/ ٣٥٧).

المفهوم التاسع:
خفاء الباطن على الله

فيحسب كل متستر بالباطل صاحب ضغينة، وكل ظالم مجتهد في إخفاء ظلمه، أن الله غير مطلع عليهم[١]. قال تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ۝٧٩ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٧٩-٨٠]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ۝٢٩ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٢٩ - ٣٠]، وقال: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨]، وقال: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [البلد: ٦ - ٧]. فهو مظنة أهل الكفر وحسبان أهل النفاق، ومن تخلق بخلقهم، وجعل الله أهون الناظرين إليه؛ فقد نبهت آيتا سورة القتال إلىٰ حسبان المنافقين الذين استحكمت فيهم أمراض القلوب - من شكٍّ في الدين، وضعف يقين - حتىٰ أصبحت علمًا عليهم يلوح بِأُسِّ عوارهم، جعلوا التخفي والتستر أساس عقيدتهم، وحسبوا أن ما اجتهدوا في ستره - من حقد، وغلّ، وحسد، وكيد بالمؤمنين - يخفىٰ علىٰ الله كما خفي علىٰ الناس، وأن الله لن يبرزه لرسوله ﷺ وللمؤمنين.

(١) ومن نظائر هذه الآيات التي تقرر كمال علم الله بما يجتهد في ستره بغير حسب: ﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:٢٩]. وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [هود:٥]، وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣]. وقوله: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٦].

فسفه حسبانهم بكشف حالهم تصريحًا وتلميحًا، فإن خفي أمرهم مدة من زمن فوفق مشيئة الله وحكمته، ولو شاء الله لكشف أعلامهم وأشخاصهم عيانًا؛ بيانًا لنبيه الكريم ﷺ بعلامة ظاهرة لا يخطئها، يعرفهم بها أيما معرفة؛ فأتبع الإراءة التي تتضمن التعريف بـ(فلعرفتهم)، قال: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ إشارة إلىٰ قوة التعريف وتمكنه فليس كل تعريف تلزمه المعرفة(١)، أو أن يكون فحوىٰ كلامهم وقلبهم للكلام عن وجهه ذهابًا به عن الصواب كقولهم: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، وقولهم: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب:١٣] تعريضًا(٢). وتململهم من واجبات الإسلام، وتعذرهم بما وهىٰ من أعذار، إشارة علىٰ نفاقهم وسبيلًا لكشف أمرهم، قال مؤكدًا بالقسم: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ قال البغوي: «فكان بعد هذا لا يتكلم منافق عند النبي ﷺ إلا عرفه بقوله، ويستدل بفحوىٰ كلامه علىٰ فساد خلقه وعقيدته»(٣)، وقد أنزل الله تعالىٰ سورة براءة؛ فبين فيها فضائحهم ودسائسهم ودلائل نفاقهم؛ ولهذا سميت الفاضحة(٤).

وتبلغ مراوغة المنافقين مبلغها وحمقهم شأوه فيما قصت آية المجادلة، إذ يصحبهم هذا الحسبان إلىٰ يوم القيامة وبين يدي رب الأرباب، فيظنون أن سترًا لكفرهم ونفاقهم يخفىٰ علىٰ الله، وأن أيمانهم الكاذبة الباطلة التي اتخذوها تقاة تروج علىٰ عالم الغيب والشهادة، كما راجت علىٰ الناس في الدنيا، ويحسبون أنهم

---

(١) ينظر: التفسير الكبير، للفخر الرازي (٢٨/ ٥٨).

(٢) ينظر: تفسير الماوردي (٥/ ٣٠٤)، التفسير الكبير، للفخر الرازي (٢٨/ ٥٨).

(٣) تفسير: البغوي (٤/ ٢١٨).

(٤) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٣٢١).

متلبسون بالنفع في حلفهم الكاذب ودعوىٰ الخفاء(١). فيأتي إنكار حسبانهم، بأن الله لا تخفىٰ عليه خافية، بتسجيل الخبر المؤكد عنهم بالكذب في دعواهم، وفي أيمانهم ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾.

ومن أهل النفاق وسمًا، إلىٰ حديث في آيتي الزخرف عن الكافرين الصادحين بكفرهم حال نفاقهم، والحمق نفسه، وحسبان أنهم يرخون ستر مؤامراتهم عن كل ناظر ومطلع، وغفلوا أن الله يعلم السر وأخفىٰ.

ويصور النظم القرآني اجتهادهم في إحكام باطلهم بالتعبير بالإبرام، والإبرام -كما جاء في المفردات-: «إحكام الأمر، ... وأصله من إبرام الحبل، وهو ترديد فتله»(٢)، وتنكير الأمر دال علىٰ تعظيمه وخطورته، ولا يخفىٰ ما في ذلك من معنىٰ التعميم أيضًا؛ ليشمل كل كيد كادُوه في خفاء للإسلام وأهله. ومنه: تدبيرهم واجتماعهم في دار الندوة علىٰ قتله ﷺ(٣)، ولكن وثاقة الباطل ومكانته تزول أمام حق يدمغه ويفل كيده، والله لهم بالمرصاد مبرم ما ينقض كيدهم، ويعلو تدبيرهم، ويرد وباله عليهم ويلحق الأذىٰ بهم كما قال تعالىٰ في آيات أخر: ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤٢]. وقوله ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠](٤).

وفي تأمل المخالفة بين أبرموا ومبرمون، طمأنينة للنفس؛ بثبات سنة الله في الكيد بأعداء الدين، وفتل باطلهم الذي له صورة الإحكام الواقعة لا حقيقته.

---

(١) ينظر: أنوار التنزيل، للبيضاوي (٥/ ١٩٦)، البحر المحيط، لأبي حيان (١٠/ ١٣٠).

(٢) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني (ص: ١٢٠).

(٣) ينظر: المحرر الوجيز، لابن عطية (٥/ ٦٥).

(٤) ينظر: جامع البيان، للطبري (٢١/ ٦٤٦)، تفسير ابن كثير (٧/ ٢٤١)، التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٥/ ٢٦٢).

وما أبرم الكفار وكادوا إلا لحسبان متوهم أن ما اجتهدوا به في إحكام باطلهم يغيب عن عالم الغيب والشهادة، ولن يأخذهم الله به، ولن يعاقبهم عليه لخفائه، وأنه جلت قدرته وعظمته لن يسمع تلك الهمسات والتمتمات، ولن يصل إليه سرهم - وهو ما حدثوا به أنفسهم أو غيرهم في خلوتهم - أو نجواهم - وهي: ما تكلموا به فيما بينهم -(١)، فجاء رد الحسبان موجزًا دامغًا: «بلىٰ» أي: إن الله سامع مطلع علىٰ سرهم ونجواهم، وهناك من يلازمهم من الملائكة يكتب ويقيد تلك الأعمال والأقوال الخافتة؛ ليؤخذوا بها في يوم الجزاء والحساب.

وكذلك حسب صناديد قريش أن الله غير مطلع علىٰ أعمالهم، وعلىٰ دواخلهم في اعتبارها - كما جاء في سورة البلد - يزعمون كثرة الإنفاق فيما يسمونها مكارم، ويدعونها معالي ومفاخر، ويحسبون أن أحدًا لا يراهم ولا يطلع علىٰ نياتهم من الرياء والافتخار فيما بينهم(٢)، فأنكر الله حسبانهم، وفي ذلك كناية عن علمه بهم، فهو الرقيب عليهم، المحاسب لهم علىٰ وجوه إنفاقهم.

وكذلك تحمل الآية علىٰ جنس الإنسان الذي يحسب أن إنفاقه ومبتغاه فيه يخفىٰ ولا يطلع عليه أحد، وليس عليه حفظة يرون أعماله ويحصونها إلىٰ يوم الجزاء، كيف ذلك وقد قال النبي ﷺ(٣): **«لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّىٰ يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ»**؟!(٤).

---

(١) ينظر: الكشاف، للزمخشري (٤/ ٢٦٥).

(٢) الكشاف، للزمخشري (٤/ ٧٥٥).

(٣) ينظر: المحرر الوجيز، لابن عطية (٥/ ٤٨٣)، البحر المحيط، لأبي حيان (١٠/ ٤٨١).

(٤) الجامع، للترمذي - كتاب الزهد، باب في القيامة (٤/ ٦١٢) ح ٢٤١٧ وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

المفهوم العاشر:

اعتبار الظاهر دون تنقيب

وفيه تنبيه، إلىٰ حسبان باطل، في التسرع والاغترار بالظاهر، وتحقيق الفهم بدعوة إلىٰ التعمق، والتنقيب عن البواطن؛ للوصول إلىٰ دقيق الاحكام، والجامع بين آياته الكريمات هو النعي علىٰ حكم بحسبان متعجل، فاته التؤدة والنظر العميق في الأمور، ففي قوله تعالىٰ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣] دفع لحسبان وسم صاحبه بالجهل؛ لأخذه بالظاهر؛ إذ كان سببًا للحكم بغنىٰ الفقير لتعففه عن السؤال، وفيه دعوة إلىٰ التبصر والفراسة ولحْظ ما يمكن أن يكون علامة دالة علىٰ حالهم وإن كتموه تجملًا وحياء.

وقيل: إن هذا الحسبان مرتبط بحال فئة مخصوصة؛ كفقراء المهاجرين وأهل الصفة، الذين حبسوا أنفسهم علىٰ طاعة الله. والنص عام، ينطبق علىٰ كل معوز متعفف أحصر اضطرارًا(١)، لمرض أو فاقة أو جهاد، أو خوف عدو عن التقلب في الأرض؛ ابتغاء المعاش وطلب المكاسب(٢).

وقد اختلف في تحديد ما يمكن أن يكون علامة يتوصل بها إلىٰ الفقر، فقيل: صفرة الوجه، وأثر الجهد، والفاقة، ورثاثة الحال(٣)، ورد بأن تلك علامات ظاهرة في الفقر، دالة علىٰ حصوله، يناقضها نص الآية بحسبان وظن الجاهل والتباس أمرهم

---

(١) ينظر: تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا (٣/ ٧٥).

(٢) ينظر: جامع البيان، للطبري (٥/ ٥٩٣)، الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٣/ ٣٤٠).

(٣) ينظر: الكشاف، للزمخشري (١/ ٣١٨)، الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٣/ ٣٤١-٣٤٢)، البحر المحيط، لأبي حيان(٢/ ٦٩٨).

عليه[1]. وقيل: التخشع والتواضع، ورد أن محله القلب، ويشترك فيه الغني والفقير. وقيل: أثر السجود إذ لا شغل لهم في الغالب إلا الصلاة، ورد بأنه وصف عام في جميع الصحابة بما أخبر الله عنهم في خاتمة سورة الفتح[2]، والصواب: العموم، وعدم التعيين بهيئة خاصة؛ لاختلافها باختلاف الأشخاص والأحوال، وإنما يرجع ذلك إلىٰ المتفرس الذي يتحرىٰ بالإنفاق أهل الاستحقاق، وإنما يدرك ذلك بالمعاينة دون الوصف، فكم من مريض اشتبه ببعض أحواله بما في صاحب الفاقة من جهد، وكم من غني لبس رث الثياب فتزيىٰ بزي أهل الحاجة، وكم من فقير يلبس حسن الثياب ليحكم في لحن قوله ومعارف وجهه أنه مسكين عزيز النفس[3].

وقد أطنب النظم الكريم في التأكيد علىٰ تعففهم بذكر لازمه وهو نفي المسألة، وذكر الإلحاف مع أنهم لا يسألون الناس بالكلية؛ ثناء عليهم، بالتعريض بالشره والضراعة التي تكون في الملحين[4]، وقد جاء في معنىٰ ذلك حديث النبي ﷺ: «لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ الْأُكْلَةُ وَالْأُكْلَتَانِ، وَلَكِنِ الْمِسْكِينُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ غِنًىٰ وَيَسْتَحْيِي، أَوْ لَا يَسْأَلُ النَّاسَ إِلْحَافًا»[5].

وختم دفع الحسبان بتذييل مرغب في الإنفاق، علىٰ الوجه الذي سيقت الهداية إليه؛ من دعوة تحري النفع به، ووضعه في موضعه، قال: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾[6].

---

(١) ينظر: التفسير الكبير، للفخر الرازي (٧/ ٦٨).

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٣/ ٣٤٢).

(٣) ينظر: جامع البيان، للطبري (٥/ ٥٩٧)، تفسير المنار، محمد رشيد رضا (٣/ ٧٥).

(٤) ينظر: جامع البيان، للطبري (٥/ ٥٩٩).

(٥) الصحيح، للبخاري – كتاب الزكاة – بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ ٢/ ١٢٤ ح ١٤٧٦.

(٦) ينظر: تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا (٣/ ٧٧).

وكذلك، أنكر في سورة الكهف، في قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ علىٰ من راعه حال فتية أهل الكهف، وما جرىٰ لهم، وكيف أمنوا من أعدائهم بأن قدر عليهم النوم سنين متطاولة، ثم بعثهم، وحسب - لأول وهلة وبنظرة قاصرة - أنها العجب الوحيد في آيات الله، أو أنها أعجبها، ولم يتنبه إلىٰ أن بديع صنع الله، وعجيب قدرته مبثوث في صفحات هذا الكون، فمع إن قصة أصحاب الكهف قصة عجيبة وأنباءها غريبة؛ إلا أن خلق السموات والأرض - مثلًا - وتزيين الأرض بأنواع المعادن والنبات والحيوان، ثم جعلها صعيدًا جرزًا خالية من الكل أعظم وأبلغ، ومن قدر علىٰ الأعظم فهو قادر علىٰ الأصغر بلا شك[(١)]، فعلىٰ المؤمن أن يحسن التقدير وينزل الأمور منازلها حتىٰ يصل إلىٰ تحقيق الإيمان؛ قال السعدي: «فالوقوف معها وحدها في مقام العجب والاستغراب، نقص في العلم والعقل، بل وظيفة المؤمن التفكر بجميع آيات الله، التي دعا الله العباد إلىٰ التفكير فيها؛ فإنها مفتاح الإيمان، وطريق العلم والإيقان[(٢)].

وكذلك أنكر في آية الفرقان في قوله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ علىٰ من حسب أن وجود الجوارح كالسمع والعقل دليل علىٰ الانتفاع بها، ولو تريث لوصل إلىٰ أنهم غير منتفعين بها، مثلهم كالأنعام، بل هم أضل، وهو إنكار عقب إنكار علىٰ النبي ﷺ أن يكون حفيظًا علىٰ المشركين الذين اتخذوا شهواتهم آلهة، وتنقلوا عن هوىٰ بين آلهة لا تنفع ولا تضر ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣] تطيبًا لنفسه ﷺ فلا تذهب حسرات علىٰ من هذه حاله، والحق أنه لا حجة تنفعه ولا جدوىٰ من نصحه، وقد بين ما وقع عليه الحسبان حال هؤلاء ومبلغ ضلالهم، فكثرتهم في

(١) ينظر: التفسير الكبير، للفخر الرازي (٢١/ ٤٢٨)، أضواء البيان، للشنقيطي (٣/ ٢٠٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص: ٤٧١).

تيه وضلال بعيد، فلا يغتر بظاهرهم، فيحسب أنهم يسمعون ما يتلىٰ من آيات، أو يعقلون ما في تضاعيفها من المواعظ الزاجرة عن القبائح، الداعية إلىٰ المحاسن؛ فيعتنىٰ بشأنهم ويطمع في إيمانهم، ويأتي الجواب تقريرًا لانحطاط رتبتهم، وحسمًا للحسبان، قال أبو السعود: «﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ إلخ، جملة مستأنفة مسوقة لتقرير النكير وتأكيده، وحسم مادة الحسبان بالمرة، أي: ما هم في عدم الانتفاع بما يقرع آذانهم من قوارع الآيات، وانتفاء التدبر فيما يشاهدونه من الدلائل والمعجزات، إلا كالبهائم التي هي مثَلٌ في الغفلة، وعلَمٌ في الضلالة»(١).

ثم تمضي الآية، في الحط من رتبة أولئك إلىٰ سفل الدركات؛ باعتبارهم أضل من الأنعام؛ فهي منقادة لأربابها، وللذي يعلفها ويتعهدها، وتهتدي لمراعيها ومشاربها، وتفقه بعض ما تسمعه من أصوات الزجر ونحوها من رعاتها وسائقيها، وتميز بين من يحسن إليها وبين من يسيء إليها، وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضره، وهؤلاء لا ينقادون لربهم خالقهم ورازقهم ولا يسمعون لمرشدهم ﷺ ولا يميزون بين إحسانه إليهم وبين إساءة الشيطان إليهم، الذي هو عدو لهم وينصتون إلىٰ وساوسه(٢).

وبعد هذا البيان لا يبقىٰ في انتفاء انتفاعهم وإدراكهم للدلائل والحجج علىٰ سلامة حواسهم ظن أو حسبان.

وكذلك في آية النمل ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

ينبه الناظر إلىٰ الجبال فيحسب ثباتها واستقرارها، وفاته أنها تتحرك حركة لا يدرك غورها، والمقام: القيامة والفزع الأكبر، يحسب الرائي أن الجبال جامدة؛

---

(١) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٦/ ٢٢١).

(٢) ينظر: جامع البيان، للطبري (١٩/ ٢٧٤)، التفسير الكبير، للفخر الرازي (٢٤/ ٤٦٣)، الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٣/ ٣٦)، إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٦/ ٢٢١)، التحرير والتنوير، (١٩/ ٣٨).

ذلكم أن الأجسام العظام، إذا تحركت حركة سريعة علىٰ سمت وكيفية واحدة، ظن الناظر أنها واقفة، فلا يكاد تتبين حركتها مع أنها تمر مرًا حثيثًا كالسحاب، حتىٰ لا يبقىٰ منها شيء، قال الله تعالىٰ: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾(1).

واختير التشبيه بمرور السحاب؛ لقصد إدماج تشبيه حال الجبال حين ذلك المرور السريع، بحال آخر للسحاب في تخلخل الأجزاء وانتفاشها، فيكون من معنىٰ قوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]، وكل ذلك مصدق لقدرة الله وإحكام صنعه(2).

وكذلك يعرّض في آية الحشر ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ بمن جعل التجمع حسبانًا للاتفاق، واجتماع الأجساد مظنة التئام القلوب. والمتحدث عنهم: هم الذين كفروا من أهل الكتاب الذين لم يفقهوا فلم يقدروا الله حق قدره؛ فجعلوا رهبة المؤمنين في صدورهم أشد من رهبتهم من الله، فلم يثبتوا للقاء المؤمنين كفاحًا، بل من وراء حصون وقلاع ومتاريس؛ ذلكم أن الله قذف في قلوبهم الرعب.

والبأس الشديد الذي يوصفون به وحلفاؤهم من المنافقين إنما هو فيما بينهم، أو أنه - هذا البأس - وعيد وتهديد للمؤمنين من وراء الجدر؛ يقولون: «لنفعلنّ كذا وكذا» ثم يتوارىٰ عند مقابلة المؤمنين، أو أن هذا البأس عنوان للعداوة(3)، فهو متسلط من بعضهم علىٰ بعض، وضرره واقع عليهم لا علىٰ المؤمنين كما يدل عليه التعبير بـ﴿بَيْنَهُمْ﴾(4).

وعليه نبه من يحسب أن هؤلاء - وإن اجتمعوا في معسكر واحد - مؤتلفون؛ بل هم مختلفون غاية الخلاف، بينهم إحن وعداوات، فلا يتعاضدون حق التعاضد،

---

(١) ينظر: التفسير الكبير، للفخر الرازي (٢٤/ ٥٧٤)، الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٣/ ٢٤٢).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٠/ ٤٧).

(٣) ينظر: التفسير الكبير، للفخر الرازي (٢٩/ ٥١٠).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٨/ ١٠٦).

ولا يرمون عن قوس واحدة(١).

ولم يسق الحسبان بصريح النهي كما جاء في آيات أخر، وإنما هو نهي بصورة الخبر، ولعل ذلك دال علىٰ تحقق في النفوس أن الاجتماع أمارة الاتفاق، واستبعاد كون اجتماع الأجساد في معسكر واحد ومصير مشترك، يشرذمه اختلاف القلوب، وقد عرف المؤمنون عن أنفسهم قوة الآصرة وصدق الانتماء، وإن تفرقت بهم الأمصار والأعصار والأجناس والأعراق.

وكما دفع الحسبان بإقرار التفرق، عقب بدافع ذلك وأنه مسبب عن نفي عقلهم، وأن تشتت القلوب وتشربها الأحقاد واتباع المصالح موهن لقوتهم ومضعف لأمتهم؛ فكان ذلك شقوة لهم، حصلت منها سعادة للمسلمين(٢).

وفي التنبيه لهذا الحسبان دروس منها:

-تجسير للمؤمنين وتشجيع لقلوبهم علىٰ قتالهم؛ بالتهوين من شأن أعدائهم، والاستخفاف بجماعتهم(٣).

-تربية للمؤمنين بتحذيرهم من التخالف، ذلكم أن الأمة لا تكون ذات بأس علىٰ أعدائها إلا إذا كانت متفقة الضمائر، فما كان المؤمنون ليثبتوا أمام أعدائهم إلا باتحاد قلوبهم، لا بتوافق أقوالهم فحسب(٤).

---

(١) ينظر: الكشاف، للزمخشري (٤/ ٥٠٧).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٨/ ١٠٦-١٠٧).

(٣) ينظر: الكشاف، للزمخشري (٤/ ٥٠٧).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٨/ ١٠٦).

المفهوم الحادي عشر:

عدم مؤاخذة المتشبع بما لم يعط.

وهنا قاعدة قرآنية، تلفت الأنظار إلىٰ جزاء فئة من الناس - انتحلوا ما ليس فيهم من فضل؛ طمعًا بالثناء والحمد - ورفع وهمٍ بحسبان أن ما فعلوه ليس محلا للمؤاخذة والوزر. قال تعالىٰ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

صاحب الحسبان:

جاءت الآية الكريمة نهيًا للنبي ﷺ تعريضًا بهم؛ لا أنه حسبان واقع منه. قال أبو السعود: «وأما نهيه ﷺ فللتعريض بحسبانهم المذكور؛ لا لاحتمال وقوع الحسبان من جهته ﷺ»(١)، أو نهيًا لكل من يصلح للخطاب(٢)، أو نهيًا للمؤمنين - علىٰ قراءة ضم باء «تحسبُن» - إفصاحًا عن كيد أعدائهم، وحفظًا لأمر الدعوة، أو حديثًا عن الفرحين فلا يحسبن أنفسهم ناجية - علىٰ قراءة الغيب «يحسبَن» بالياء -(٣) بيانًا دامغًا بأحوال أخلاقهم، بالاطلاع علىٰ حقائق ضمائرهم.

متعلق الحسبان:

وقد اختلف أهل التأويل في بيان متعلق الحسبان؛ تبعًا لمسلكهم في النظر إلىٰ

(١) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٢/ ١٢٦).

(٢) ينظر: المرجع نفسه (٢/ ١٢٥).

(٣) ينظر: النشر في القراءات العشر، لابن الجزري (٢/ ٢٤٦)، الحجة في القراءات السبع، لابن خالويه ص١١٧، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، للبناء ص ٣٣٤.

سبب نزول الآية بين الجمع والترجيح، وإن رأوا عموم الحكم فيمن كان هذا حاله؛ إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ومنشأ الإشكال إخراج الصحيحين لكليهما، الأول: من حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّ رِجَالًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ الْغَزْوِ تَخَلَّفُوا عَنْهُ، وَفَرِحُوا بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَإِذَا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ اعْتَذَرُوا إِلَيْهِ وَحَلَفُوا، وَأَحَبُّوا أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا، فَنَزَلَتْ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ الْآيَةَ[1]. والحديث الثاني: أنها في أهل الكتاب في إجابة اليهود للنبي ﷺ بغير ما سئلوا عنه وكتموا ما عندهم من ذلك، ففي الصحيح «أَنَّ مَرْوَانَ قَالَ لِبَوَّابِهِ: اذْهَبْ يَا رَافِعُ إِلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ فَقُلْ: لَئِنْ كَانَ كُلُّ امْرِئٍ فَرِحَ بِمَا أُوتِيَ، وَأَحَبَّ أَنْ يُحْمَدَ بِمَا لَمْ يَفْعَلْ، مُعَذَّبًا، لَنُعَذَّبَنَّ أَجْمَعُونَ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَمَا لَكُمْ وَلِهَذِهِ، إِنَّمَا دَعَا النَّبِيُّ ﷺ يَهُودَ فَسَأَلَهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَكَتَمُوهُ إِيَّاهُ، وَأَخْبَرُوهُ بِغَيْرِهِ، فَأَرَوْهُ أَنْ قَدِ اسْتَحْمَدُوا إِلَيْهِ بِمَا أَخْبَرُوهُ عَنْهُ فِيمَا سَأَلَهُمْ، وَفَرِحُوا بِمَا أُوتُوا مِنْ كِتْمَانِهِمْ، ثُمَّ قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ كَذَلِكَ حَتَّىٰ قَوْلِهِ: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾ [آل عمران: ١٨٨][2]، وأكثر المفسرين[3] علىٰ ترجيح رواية ابن عباس، وذلك لمناسبة السياق إذا كانت هذه الآية تتمة لحديث عنهم، وبيان شنيع أفعالهم في

---

(١) الصحيح، للبخاري - كتاب تفسير القرآن - سورة آل عمران - باب لا يحسبن الذين يفرحون بما أتوا، ٦/ ٤٠ ح٤٥٦٧.

(٢) الصحيح، للبخاري - كتاب تفسير القرآن - سورة آل عمران - باب لا يحسبن الذين يفرحون بما أتوا، ٦/ ٤٠ ح٤٥٦٨.

(٣) ينظر: جامع البيان، للطبري ٧/ ١٤٧، المحرر الوجيز، لابن عطية (١/ ٥٥٢)، البحر المحيط، أبو حيان (٣/ ٤٦٥)، إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٢/ ١٢٦)، التحرير والتنوير، لابن عاشور (٤/ ١٩٣).

سباقها، قال الطبري: «وأولىٰ هذه الأقوال بالصواب في تأويل قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾ الآية، قول من قال: «عني بذلك أهل الكتاب الذين أخبر الله – جل وعز – أنه أخذ ميثاقهم، ليبين للناس أمر محمد ﷺ ولا يكتمونه؛ لأن قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾ الآية، في سياق الخبر عنهم، وهو شبيه بقصتهم مع اتفاق أهل التأويل علىٰ أنهم المعنيون بذلك»(١).

ولعل في ترجيح الرواية الأولىٰ في المنافقين وجهًا؛ إذ كونها جاءت بالصيغة الصريحة في سبب النزول لا التفسير (فنزلت...)، وهو ما يؤيده صنيع البخاري بتقديمه في الباب، واقتصار ابن حبان عليه في ذكر السبب الذي من أجله أنزلت الآية(٢)، والسياق لا يمنع ذلك؛ إذ تتم حديثًا عن أخلاق المعاصرين للنبي ﷺ من يهود ومنافقين، يدعوه إلىٰ المصابرة علىٰ ما كان من سوء أخلاقهم(٣)، «والموصول هنا بمعنىٰ المعرف بلام العهد؛ لأنه أريد به قوم معينون من اليهود أو المنافقين(٤)».

وقد رأىٰ فريق من العلماء الجمع بينهما حلاً لهذا الإشكال؛ بجعلهما من باب تعدد السبب والنازل واحد.

فقد أجاب الطحاوي تحت باب عقده في بيان مشكل ما روي عن رسول الله ﷺ في السبب الذي قد نزلت لأجله ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟...﴾: «..أن لا تضاد في ذلك؛ لأنه قد يجوز أن يكون الأمران جميعًا قد كانا، فكان من المنافقين إلىٰ رسول الله ﷺ ما ذكره رافع وأبو سعيد، وكان من أهل الكتاب ما كان منهم إلىٰ

(١) جامع البيان، للطبري (٧/ ٤٧١).

(٢) ينظر: الصحيح، لابن حبان (١١/ ٣٤).

(٣) ينظر: التفسير الكبير، للفخر الرازي (٩/ ٤٥٨).

(٤) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٤/ ١٩٣).

رسول الله ﷺ مما ذكره ابن عباس؛ فأنزل الله ﷻ هذه الآية في ما كان من الفريقين جميعًا، فعلم رافع وأبو سعيد ما نزلت فيه مما كان من المنافقين، وعلم ابن عباس ما نزلت فيه مما كان من أهل الكتاب، ولم يعلم واحد من الفريقين ما علم الفريق الآخر ما نزلت فيه، فحدث كل فريق من الفريقين بما علم به مما كانت الآية نزلت فيه من السببين اللذين كان نزولها فيهما، وكان نزولها في الحقيقة في السببين جميعًا لا في أحدهما دون الآخر، فبان بحمد الله ونعمته أنه لم يبن لنا في شيء من هذه الروايات تضاد والله نسأله التوفيق»[(١)]. وقال القرطبي: «والحديث الأول خلاف مقتضىٰ الحديث الثاني. ويحتمل أن يكون نزولها علىٰ السببين لاجتماعهما في زمن واحد، فكانت جوابًا للفريقين»[(٢)].

أو علىٰ اعتبار العموم بصلاح الاعتبار فيهما، وفي كل ما يصلح لذلك - أي باللفظ - بقطع النظر عن السبب والسياق المرتبط، قال ابن حجر: «ولا مانع أن تكون نزلت في كل ذلك، أو نزلت في أشياء خاصة، وعمومها يتناول كل من أتىٰ بحسنة ففرح بها فرح إعجاب، وأحب أن يحمده الناس ويثنوا عليه بما ليس فيه، والله أعلم»[(٣)].

وعليه - وأخذًا بخصوص السبب أو عموم اللفظ وانتظام المعهودين دخولًا أوليًا - فإنه يدخل تحت متعلق الحسبان المنهي عنه في نجاة الأحوال الآتية:

١- من اشتروا الثمن القليل بتغيير كلام الله تعالىٰ، وكتمان أمر نبوته ﷺ ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا من وفاء الميثاق من غير تغيير ولا كتمان، وبأنهم أهل الدين والطاعة واتباع للوحي وأهل تأويله، وهم من ذلك أبرياء أخلياء[(٤)]،

---

(١) بيان مشكل الآثار، للطحاوي (٥/ ٣١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٤/ ٣٠٦-٣٠٧)، ينظر محاسن التأويل، للقاسمي (٢/ ٤٧٨)

(٣) فتح الباري، لابن حجر (٨/ ٢٣٣)، وينظر عمدة القاري، للعيني (١٨/ ١٥٧).

(٤) ينظر: جامع البيان، للطبري (٧/ ٤٧١- ٤٧٢)، الكشاف، للزمخشري (١/ ٤٥١)، الجامع

ويدخل فيه كل من يكتم ما أنزل الله، ويحب أن يحمد علىٰ أنه من المجاهرين به(١). «وكذلك كل من ابتدع بدعة قولية أو فعلية، وفرح بها، ودعا إليها، وزعم أنه محق وغيره مبطل»(٢).

ومن يأتي وجوه الحيل في تحصيل الدنيا ويفرح بذلك، ثم يحب أن يحمد بأنه من أهل العفاف والنزاهة(٣).

٢- من يتخلفون عن الغزو ويعتذرون بالمعاذير علامة علىٰ نفاقهم، فيقبل منهم النبي ﷺ ويحبون أن يحمدوا بأن لهم نية المجاهدين، وأنهم من أهل الإيمان والجهاد لكن العذر حبسهم(٤)، ويدخل فيه كل من يتخلف عن طاعة الله وداعي جهاده، ويحب أن يحمد علىٰ أنه من الملتزمين بأمر الله، فإذا انهزم القوم فخروا بأنفسهم لتمهلهم، وإن انتصروا انتحلوا لهم سهما في النصر.

٣- «كل من يأتي بحسنة فيفرح بها فرح إعجاب، ويحب أن يحمده الناس ويثنوا عليه بالديانة والزهد وبما ليس فيه»(٥)، ويدخل في ذلك المرائين المتكثرين،

لأحكام القرآن، للقرطبي (٤/ ٣٠٧)، روح المعاني، للألوسي (٢/ ٣٦١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٤/ ١٩٣)، محاسن التأويل، للقاسمي (٢/ ٤٧٧)

(١) ينظر: الأساس في التفسير، سعيد حوىٰ (٢/ ٩٥٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي ص ١٦٠-١٦١.

(٣) ينظر: التفسير الكبير، للفخر الرازي (٩/ ٤٥٧).

(٤) ينظر: الكشاف، للزمخشري (١/ ٤٥١)، المحرر الوجيز، لابن عطية ١/ ٥٥٢، الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٤/ ٣٠٦)، إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٢/ ١٢٦)، التحرير والتنوير، لابن عاشور (٤/ ١٩٣)، الأساس في التفسير، سعيد حوىٰ (٢/ ٩٥٨)

(٥) الكشاف، للزمخشري (١/ ٤٥٢).

قال ابن كثير في تفسير الآية:[1] «يعني المرائين المتكثرين بما لم يُعْطَوا»، كما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ: «**من ادَّعَىٰ دَعْوىٰ كاذبة لِيتَكَثَّر بها لم يَزِدْه الله إلا قِلَّة**»[2]. وفي الصحيح: «**الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ**»[3] وهي كناية عن المتحلي بفضيلة لم يرزقها، وليس من أهلها[4].

قال أبو عبيد: «يعني المتزين بأكثر مما عنده يتكثر بذلك ويتزين بالباطل، كالرجل يلبس الثياب تشبه ثياب أهل الزهد في الدنيا يريد بذلك الناس، ويظهر من التخشع والتقشف أكثر مما في قلبه منه، فهذه ثياب الزور والرياء»[5].

ويخرج من ذلك وبالتقييد ﴿بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ﴾ المحمدة بالحق وفرح النفس وارتياحها بتيسير العمل وتمامه؛ قال الطيبي: «يعني: إن فرح أنه موفق من الله فلا بأس به»[6]، ولعل هذا ما فهمه حبر الأمة في إخراج سائليه، فأجاب: «وما لكم ولهذه» عندما سئل: «لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبًا، لنعذبنّ أجمعون»، فالمحمدة الصحيحة طريق للشكر لا البطر، وحب الثناء بالحق علىٰ العمل النافع من غرائز الفطرة التي يستعان بها علىٰ التربية العالية، واستنهاض الهمم غير مذموم ولا متوعد عليه، لكن يخرج منها ما إذ كانت محمدة الحق علىٰ ذلك العمل في بعض الأحيان طريقًا

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ١٨١).

(٢) الصحيح، لمسلم - كتاب الإيمان - باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وأن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار، ١/ ٧٣ ح ١١٠.

(٣) الصحيح، للبخاري - كتاب النكاح - باب المتشبع بما لم ينل وما ينهىٰ من افتخار الضرة، ٧/ ٣٥ ح٥٢١٩.

(٤) ينظر: الفائق في غريب الحديث، للزمخشري (٢/ ٢١٧).

(٥) غريب الحديث، لأبي عبيد ابن سلام (٢/ ٢٥٣) بتصرف يسير.

(٦) حاشيته علىٰ الكشاف (٤/ ٣٧٧).

لفرح العجب والغرور وفتور الهمة لصاحبه، فتعود إلىٰ دائرة الذم، وهذا من أسباب نهيه ﷺ عن المدح في أحاديث منها[1]: فعن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَجُلًا ذُكِرَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ رَجُلٌ خَيْرًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَيْحَكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ - يَقُولُهُ مِرَارًا - إِنْ كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحًا لَا مَحَالَةَ فَلْيَقُلْ: أَحْسَبُ كَذَا وَكَذَا، إِنْ كَانَ يَرَىٰ أَنَّهُ كَذَلِكَ، وَحَسِيبُهُ اللهُ، وَلَا يُزَكِّي عَلَىٰ اللهِ أَحَدًا**». قَالَ وُهَيْبٌ عَنْ خَالِدٍ: وَيْلَكَ[2].

جواب الحسبان:

قرر ذم من ثبت جرمه فيما سبق من أحوال، ووعيده بمسالك منها: تصدير الوعيد بتكرار النهي عن الحسبان تأكيدًا وإيضاحًا لقصتهم[3]، وتنبيهًا علىٰ بطلان آرائهم الركيكة وقطع أطماعهم الفارغة بالنجاة من عذاب الآخرة، كما زعموا نجاتهم من المؤاخذة الدنيوية[4].

ثم تكرار الوعيد، فافتتح - بعد تشويق السامع لمصير أولئك بعد بيان جنايتهم - بعدم النجاة من عذاب متربص بهم، وثني باستحقاقهم العذاب لثبوت جرمهم، ووصف بالأليم مناسبة لما اقترفوا من فرح بتدليسهم[5]، وجزاء علىٰ فعلتهم، وكان الأحرىٰ بهم أن ينكسروا لإثمهم أو يطلبوا الستر لا أن يترقبوا الثناء من الناس؛ فكان الألم مصيرهم.

◆ ◆ ◆

(١) ينظر: تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا (٤/ ٢٣٨-٢٣٩).

(٢) الصحيح، للبخاري - كتاب الأدب - باب ما يكره من التمادح، ٨/ ١٨ ح ٦٠٦١.

(٣) ينظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (١/ ٤٩٨).

(٤) ينظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٢/ ١٢٦).

(٥) ينظر: البحر المحيط، لأبي حيان (٣/ ٤٦٨).

المفهوم الثاني عشر:
تمحض المصائب للشر

وفيه رفع ما يمكن أن يتوهم من شر محض بالنظر إلىٰ عاجل الأمور دون مآلاتها، وتقرير اعتقاد المؤمن بخيرية البلاء؛ تفاؤلًا بما يعقبه من خير عميم بإذن الله، فيتحصل الرضا والتسليم بالأقدار المؤلمة، بعد اليقين بتدبير الله لهذا الكون وفق قدرته وحكمته، قال ابن القيم: «كل قدر يكرهه العبد ولا يلائمه لا يخلو: إما أن يكون عقوبة علىٰ الذنب فهو دواء لمرض لولا تدارك الحكيم إياه بالدواء لترامىٰ به المرض إلىٰ الهلاك، أو يكون سببًا لنعمة لا تنال إلا بذلك المكروه، فالمكروه ينقطع ويتلاشىٰ وما يترتب عليه من النعمة دائم لا ينقطع، فإذا شهد العبد هذين الأمرين انفتح له باب الرضىٰ عن ربه في كل ما يقضيه له ويقدره»(١).

فتسكن النفس ويطمئن القلب بخير آجل وإن آلمته مباديها، فكان سجن يوسف عليه السلام طريقًا لبراءته وتمكينه في الأرض، وألقي موسىٰ عليه السلام في لجج البحار ماضيًا إلىٰ تحقيق الدعوة إلىٰ الإيمان وإهلاك فرعون، وكانت بدر التي لم يودها المسلمون فرقانًا بين الحق والباطل، وحقق صلح الحديبية الذي لم يرتضوا بعض بنوده فتحًا مبينًا.

وقد تجلت هذه القاعدة القرآنية دعوة صريحة بنفي حسبان الشر المحض والتنبيه إلىٰ عاقبة الخير في قوله تعالىٰ(٢): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ

(١) مدارج السالكين، لابن القيم (٢/ ٢١٢).

(٢) ومن نظائر هذه الآية التي تقرر انتفاء تمحض الشر بغير حسب قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ

خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النور: ١١].

فكانت حادثة الإفك من أعظم الابتلاءات التي مرت علىٰ النبي ﷺ وعلىٰ المسلمين؛ إذ رمي المجتمع المسلم في عرضه حين رمي بيت النبوة في عرضه، فتزلزل المجتمع المسلم مع تلبث الوحي، ولم يملك النبي ﷺ أن يصدح ببراءة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها، مع تيقنه منها، وقد تفتق كبدها ألمًا ومرارة، وتساور الحيان في المسجد، وبالسلاح يتنازعون علىٰ شرف قتل هذا الطاعن عند ما اشتكىٰ إليهم النبي ﷺ قائلًا: «**يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي؟ يعني عبد الله بن أبيّ فو الله ما علمت علىٰ أهلي إلا خيرًا**»(١).

وكل ذلك من المضرة العاجلة وشر المبادي، فجاء الخطاب للمؤمنين، ويدخل في ذلك دخولًا أوليًا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعائشة وصفوان - رضي الله عنهم أجمعين -(٢) بالنهي عن حسبان أن ذلك من الشر، طمأنة لهم بل وتسلية بأنه من الخير؛ بما جعل في طي هذا البهتان من الألطاف الخفية، قال الألوسي: «ونهوا عن حسبان ذلك شرًا لهم إراحة لبالهم بإزاحة ما يوجب استمرار بلبالهم، وأردف سبحانه النهي عن ذلك بالإضراب، بقوله ﷻ: ﴿بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ اعتناء بأمر التسلية »(٣)، خير لهم في الدنيا

لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩].

(١) الصحيح، للبخاري - كتاب الشهادات - باب تعديل النساء بعضهن بعضًا، ٣/ ١٧٣ ح٢٦٦١.

(٢) ينظر: فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، للطيبي (١١/ ٣٣).

(٣) روح المعاني، للألوسي (٩/ ٣١١).

والآخرة، لسان صدق في الدنيا ورفعة في الآخرة[(١)]، و«ألطاف للسامعين والتالين إلىٰ يوم القيامة، وفوائد دينية، وأحكام وآداب لا تخفىٰ علىٰ متأمليها »[(٢)]، وقد التمست الحكم الجليلة ومظاهر الخيرية المنصوص عليها في **جواب الحسبان** فيما يأتي:

أولًا: رضوان الله وجزيل الثواب لـ:

– صبرهم علىٰ ذلك البلاء المبين والمحنة الظاهرة؛ طلبًا لمرضاة الله تعالىٰ، وتطبيقًا لمنهج المؤمنين العارفين بذلة العبودية الراضين بقضاء الله «إن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»[(٣)].

– إخلاصهم لله تعالىٰ، وإقبالهم عليهم، وتضرعهم بدعائه؛ إذ لا مرجع في رفع الشدائد إلا إليه.

– عفوهم عن الخائضين بالإفك، كعفو الصديق رضي الله عنه عن مسطح والعود في الإنفاق عليه.

– شكرهم الله علىٰ عظيم نعمائه؛ إذ جعل لهم مخرجًا.

ثانيًا: عظم الفضل وشرف المكانة والكرامة علىٰ الله:

إذ أنزل الله ثمان عشرة آية كل واحدة منها مستقلة ببراءة عائشة رضي الله عنها وقد رجت الصديقة أن تنزل براءتها برؤيا حق فجاءت كرامتها العظمىٰ في قرآن يتلىٰ إلىٰ يوم القيامة[(٤)] فخرت

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٢٥)

(٢) الكشاف، للزمخشري (٣/ ٢١٧).

(٣)ينظر: الكشاف، للزمخشري (٣/ ٢١٧)، التفسير الكبير، للفخر الرازي (٢٣ / ٣٣٨).

(٤) قالت رضي الله عنها: «...وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللهُ بِهَا...»، الصحيح، للبخاري – كتاب الشهادات – باب تعديل النساء بعضهن بعضًا، ٣/ ١٧٣ ح٢٦٦١.

به[1]، وذكرت به عند موتها تعزية لها[2].

قرآن يتلىٰ، فيه تنزيه لأم المؤمنين - رضوان الله عليها - بل مدحٌ لسائر أمهات المؤمنين، وتطهيرٌ لأهل البيت، وتهويلٌ لمن تكلم في ذلك أو سمع به فلم تمجه أذناه، وشهادة من الله تعالىٰ بكذب القاذفين، ونسبهم إلىٰ الإفك، وتشديد الوعيد عليهم؛ إذ أوجب عليهم اللعن والذم، وفي هذا غاية الشرف والفضل[3].

ثالثًا: تمحيص الصف وفضح المنافقين وإبراز كيدهم وما يضمرونه من سوء للنبي ﷺ وأهل بيته وللمؤمنين؛ إذ لولا إظهارهم للإفك لبقيت هذه التهمة كامنة في الصدور، وعند الإظهار انكشف كذب القوم علىٰ مر الدهر[4].

رابعًا: الانتصار للقرآن: بإثبات أن هذا القرآن وحي من عند الله، وما النبي ﷺ إلا بشر يوحىٰ إليه، لا يعلم الغيب؛ إذ لو كان هو من سطر القرآن لما تلبث شهرًا في عناء عظيم، قال صاحب النبأ العظيم: «فماذا كان يمنعه - لو أن أمر القرآن إليه - أن يتقول هذه الكلمة الحاسمة من قبل ليحمي بها عرضه، ويذب بها عن عرينه، وينسبها إلىٰ الوحي السماوي لتنقطع ألسنة المتخرصين؟ ولكنه ما كان ليذر الكذب علىٰ الناس ويكذب علىٰ الله»[5].

- **خامسًا: صارت شرعًا عامًا للمؤمنين في تحريم القذف**، وبيان أخذهم

(١) ينظر: قصتها مع زينب ﵂، تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ١٧١).

(٢) ينظر: قصتها مع ابن عباس ﵄، تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ١٧١).

(٣) ينظر: الكشاف، للزمخشري (٣/ ٢١٧)، التفسير الكبير، للفخر الرازي (٢٣/ ٣٣٨)، تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٢٥)، روح المعاني، للألوسي (٩/ ٣١١)، تيسر الكريم الرحمن، للسعدي، ص٥٦٣.

(٤) ينظر: التفسير الكبير، للفخر الرازي (٢٣ / ٣٣٨).

(٥) النبأ العظيم، لمحمد عبد الله دراز ص٥٣.

بالعقوبة، ثم بيان المنهج القويم في التعامل مع الإشاعات ورد الأكاذيب وحفظ اللسان[١]، وغيرها من هذه الفوائد الخفية والألطاف السماوية.

وستبقى هذه القاعدة القرآنية ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ تحقيقًا لفهم مَن ألمت به الخطوب، وسببًا لصبره ومجلبة لرضاه، ذِكْرَىٰ ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي ٥٦٣.

المفهوم الثالث عشر:
ترك المؤاخذة بقول اللسان

وفيه دعت (حسب) إلىٰ حفظ اللسان؛ إذ تنبه علىٰ خطأ عظيم، وتسهم في تصحيح مفهوم بئيس في عدم المؤاخذة علىٰ حصائد الألسن، ومجازفاتها، واستخفاف الناس بنشر الأخبار؛ يطيرون بها في الآفاق، بلا نظر أو تدقيق، يهرفون بما لا يعرفون، يهونون لحسبانهم ذاك ما عظمت مسؤوليته، وثقلت تبعته، قال تعالىٰ:

(١)﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

إذ مثلت الآية الكريمة لتلك الآفات؛ بفيض الناس وخوضهم في حديث الإفك، «يلَقَّوْنَهُ بألسنتهم»: أي يأخذه بعضهم عن بعض(٢)، وهي قراءة الجماعة، وتوضح معناها - ببيان كيفية ذلك التلقي - القراءة الشاذة عن عائشة ﵂ «إذْ تَلِقُونَهُ بألسِنَتِكُم» - بفتح التاء وكسر اللام - قال ابن السكيت أي: «تسرعون القول

(١) ومن نظائر هذه الآيات التي تبين قيمة اللسان وتدعو إلىٰ حفظه بغير تنبيه حسب: قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]. وقوله ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣] وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣]، وقوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، وقوله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

(٢) ينظر: العين، للخليل بن أحمد (٥/ ٢١٤)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، للجوهري (٦/ ٢٤٨٤).

فيه»[(١)]، وقال ابن الأنباري: «علىٰ معنىٰ: إذ تستمر ألسنتكم بالخوض في ذلك، والكذب فيه»[(٢)].

ولا أدل علىٰ تصوير سرعة وخفة تلك الأقوال المتداولة؛ حتىٰ إذا وصلت أديرت إلىٰ غيرها، دون أدنىٰ تأمل، من إسناد التلقي إلىٰ الألسنة دون الأسماع، بل أضحىٰ الصائح بالخبر كأنه لسان يمشي هنا وهناك، قال ابن عاشور: «ففي قوله: ﴿بِأَلۡسِنَتِكُمۡ﴾ تشبيه الخبر بشخص، وتشبيه الراوي للخبر بمن يتهيأ ويستعد للقائه استعارة مكنية؛ فجعلت الألسن آلة للتلقي علىٰ طريقة تخييلية؛ بتشبيه الألسن في رواية الخبر بالأيدي في تناول الشيء. وإنما جعلت الألسن آلة للتلقي مع أن تلقي الأخبار بالأسماع؛ لأنه لما كان هذا التلقي غايته التحدث بالخبر جعلت الألسن مكان الأسماع مجازًا بعلاقة الأيلولة. وفيه تعريض بحرصهم علىٰ تلقي هذا الخبر فهم حين يتلقونه يبادرون بالإخبار به بلا ترو ولا تريث. وهذا تعريض بالتوبيخ أيضًا»[(٣)].

وفي ذلك مخالفة للنهج الصحيح والأدب النبوي في تحمل الأخبار ووعيها قبل أدائها، قياسًا علىٰ ضوابط تبليغ مقالته ﷺ حيث قال: «**نَضَّرَ اللهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي، فَوَعَاهَا، ثُمَّ أَدَّاهَا إِلَىٰ مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَا فِقْهَ لَهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ**»[(٤)].

---

(١) كتاب الألفاظ، لابن السكيت (ص: ٢٠١)، وينظر المخصص، لابن سيده (١/ ٢٧٣)، والمحتسب، ابن جني (٢/ ١٠٣).

(٢) الزاهر في معاني كلمات الناس، للأنباري (١/ ٥٠٠).

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٨/ ١٧٨).

(٤) جزء من حديث صحيح، أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسند - مسند أنس بن مالك ﷺ، ٥/ ٢٨٢٣ح١٣٤٩٧.

ومما يؤكد هذا الأدب السلوكي، ويتمم النعي عليهم انتفاء تمهلهم وتثبيتهم. وتقييد قولهم بـ(الأفواه) تنبيهًا وتمهيدًا لوصفها بعد أنها ليس لهم بها علم ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾: أي «ليس إلا قولًا يجرىٰ علىٰ ألسنتكم، ويدور في أفواهكم، من غير ترجمة عن علم به في القلب، كقوله تعالىٰ: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾» قاله الزمخشري[1].

وفي ذلك دلالة علىٰ عدم جواز الإخبار إلا مع العلم والتبين، وإلا كان ذلك كالإخبار عما علم كذبه في الحرمة، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كَفَىٰ بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ**»[2]، بل قام العلم في هذا المقام علىٰ نقيض ما أفاضوا فيه وأذاعوه في حق زوج النبي ﷺ[3].

وتمم جواب الحسبان بأنهم ما فعلوا ذلك إلا لحسبان باطل؛ باستصغار ما اقترفته ألسنتهم وهوانه عليهم، ظنًا أن لا إثم عليهم ولا حرج ولا تبعة، والحال أنه عند الله عظيم في الوزر واستجرار العذاب[4]. قال الرازي: «نبه بقوله: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ علىٰ أن عظم المعصية لا يختلف بظن فاعلها وحسبانه، بل ربما كان ذلك مؤكدًا لعظمها من حيث جهل كونها عظيمًا»[5].

وفي هذا زجر بليغ عن ارتكاب الذنوب علىٰ وجه التهاون بها، فإن حسبان العبد لا يفيده شيئًا ولا يخفف من الوزر.

---

(١) الكشاف، للزمخشري ٣/ ٢١٩، وينظر التفسير الكبير، للفخر الرازي ٢٣/ ٣٤٣، أنوار التنزيل، للبيضاوي ٤/ ١٠١.

(٢) الصحيح، لمسلم - مقدمة - باب النهي عَنْ الحديث بكل ما سمع، ١/ ٨ ح ٥.

(٣) ينظر: التفسير الكبير، للفخر الرازي ٢٤/ ٣٤٣، التحرير والتنوير، لابن عاشور ١٨/ ١٧٨.

(٤) ينظر: أنوار التنزيل، للبيضاوي ٤/ ١٠١، وإرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٦/ ١٢٦.

(٥) التفسير الكبير، للفخر الرازي ٢٣/ ٣٤٣.

وقد حملت السنة المطهرة التنبيه ذاته إلىٰ بطلان عدم توثير اللسان والمبالاة بشأنه، كما جاء في الحديث عن معاذ ﷺ وحواره مع النبي ﷺ يدله علىٰ أبواب الطاعات، إلىٰ أن قال ﷺ: «.. أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟، قَالَ: قُلْتُ: بَلَىٰ يَا نَبِيَّ اللهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ: اكْفُفْ عَلَيْكَ هَذَا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَإِنَّا لَمَأْخُوذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ؟ قَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يُكِبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ - أَوْ قَالَ: عَلَىٰ مَنَاخِرِهِمْ - إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»(١).

---

(١) الجامع، للترمذي - أبواب الإيمان عن رسول الله ﷺ - باب ما جاء في حرمة الصلاة، ٤/ ٣٦٢-٣٦٤ ح٢٨٤١. وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الخَاتِمَة

الحمد لله حمدًا طيبًا مباركًا فيه؛ إذ أفاض عليَّ من كرم جوده، وواسع فضله، في فهم وتدبر دعوات ربانية؛ لرفع الوهم وتسديد الفهم، ويطيب لي في هذا المقام أن أسجل النتائج الآتية:

- تنوعت أساليب القرآن العظيم وأدواته في رفع الوهم وتحقيق الفهم وإزالة ما قد يشوش على الحقيقة، أو يزين الباطل، منها: إنكار الوهم، والتعريض بالمتوهم باستخدام الاستفهام الإنكاري، والتنبيه على الوهم المرجوح بما في حيز النفي وتصحيح الفهم استدراكًا بعد لكن، وردع موقظ للمخطئ في توهمه بتصحيح الفهم بعد (كلا)، وإبطال وإضراب عما هو مظنون موهوم، وتحقيق للفهم بما هو في حيز (بل)، و (بلى) بمعنى بل، وتنبيه لما بطل تصوره قبل (قل)، وتلقين للحجة في رده بعدها. والتنبيه بأفعال الرجحان (ظن وزعم وحسب) على توهم مرجوح الظن داعية لتصحيح الفهم.

- لـ(حسب) أصول أربعة: الأول: العد والإحصاء، ومنه الحسبان المعنوي، أي كون حسب من أفعال القلوب الدالة على الرجحان، والثاني: الكفاية، والثالث: الوسادة الصغيرة، والرابع: تغير لون الجلد.

- يدل الفعل (حسب) على الرجحان أو إرادة الاعتقاد الراجح، وفيه معنى الحساب الحسي، فكأن صاحب الحسبان أجرى عملية حساب، وتدقيق، ونظر عقلي، أثمرت تصوره وحسبانه، وليس مثله الظن الذي يدخل الذهن ويلابسه لأدنى سبب.

- يفيد (حسب) اعتقاد الرجحان مقتربًا من الجزم ومترددًا إلىٰ اليقين، فهو يقين مبني علىٰ أمارات العلم والنظر مشوب بالشك، يحكم فيه الحاسب لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله، فيحسبه ويعقد عليه الإصبع، وليس كذلك الظان الذي يخطر النقيضين بباله فيغلب أحدهما علىٰ الآخر.

- راعىٰ الاستعمال القرآني تلك الدلالة الدقيقة للفعل حسب، في التنبيه علىٰ أوهام تصورها أصحابها بعد نظر عقلي فاسد وتأمل أعمىٰ، أفضىٰ بهم إلىٰ مفاهيم خاطئة وتصورات باطلة، فكانت (حسب) داعية إلىٰ تصحيح تلك المفاهيم الدعية علىٰ العلم والحساب الدقيق.

- حف (حسب) بجملة من الأساليب التي نبهت علىٰ بطلان الحسبان: كاقتران حسب بالاستفهام الإنكاري أو بالنهي المؤكد بالنون الثقيلة، أو التعقيب بما يقرر بطلانه، وحسم الجواب في رده مشفوعًا بأدوات متنوعة: كصريح الإبطال، والتهكم وذكر وخيم العاقبة، ونحو ذلك.

- أحصت الدراسة من تلك الأوهام المتخيلة والمفاهيم المرجوحة ثلاثة عشر مفهومًا، من مهمات العقيدة والسلوك، في أربعة وثلاثين موضعا بالفعل (حسب) وتصاريفه، وهي:

أولًا: تحقق الإيمان بلا تكليف، واستحقاق النصر والتمكين والجنة والنعيم بلا تمحيص، ودُفع بما هو سنة ربانية لا تتبدل في العمل والجزاء، وهي أن مقتضىٰ الإيمان الفتون والمكاره، فإذا ما تمحض الإيمان تحقق النصر والتمكين في الحال، وأزلفت الجنة في المآل.

ثانيًا: مفازة المسيئين من العذاب، وإمهالهم خير لهم، وإمدادهم بالنعم إكرام ومزية، ودفع بما هو سنة من سنن الله أيضًا وهي أن أخذ الكفار وعقابهم طريق لا

يتخلف، وإمهالهم زيادة لهم في الإثم، واسترسالٌ لهم في الفسق وحرمانٌ لهم من نعمة الابتلاء الموقظة، حتىٰ يلقوا العذاب المهين في موعد مضروب وفق حكمة الله وتقديره.

ثالثًا: **منفعة الكافر بعمله ومجازته عليه.** ودفع بما هو سنة ثابتة أن الجزاء من جنس العمل، فلا اعتبار لأعمال الكفار ولا حسنات لهم توزن ولا مثاقيل لعدم وجود شرطها، وهو الإيمان.

رابعًا: **وجود الأولياء ونصرتهم من دون الله**، ودفعت ولايتهم بفوات مقتضيات الولاية من النصرة والحماية من عباد من خلق الله لا يملكون لأنفسهم نفعًا أو ضرًا، وقرر بطلان حسبانهم بوسمهم بالضلال وبذكر سوء عاقبتهم في النار.

خامسًا: **انتفاء غاية الخلق واستبعاد البعث.** ودفع هذا الحسبان بتنزيه الله وتعاظمه عن هذا العبث؛ وهو الخلق سدىٰ وهملًا بلا بعث وحساب، وبجملة من الحجج الدامغات، منها: أن القادر علىٰ الخلق الأعظم قادر علىٰ ما هو دونه، ومن قدر علىٰ بدأ الخلق من عدم قادر علىٰ الإعادة.

سادسًا: **انقطاع حياة الشهداء وفوات نعيمهم بعد الموت**، ودفع ببيان التصور السديد للحياة والموت، الذي يثمر قيمة عظمىٰ في تقدير الأمور، واستقبال الموت بقلوب مطمئنة راضية بأقدار الله؛ إذ علم انتفاء موت الشهداء باعتبار أن ما بعده عدم، يتركون سدىٰ لا يحسون شيئًا ولا يلتذون ولا ينعمون، وإثبات حياتهم، وتحليهم بخصائص الأحياء والنعيم المقيم من وقت قتلهم، وفي برزخهم قبل مبعثهم.

سابعًا: **كنز المال غنيمة لصاحبه، وطريق خلوده**، ودفع بتسجيل حوبة البخيل بإثبات شر عمله وإن كان مفهومًا من نفي الخيرية والمنفعة عنه قبلًا، وبوخامة عاقبته في المآل – جزاء وفاقًا – بنار تطوقه وتحطم وتكسر كل ما وقع فيها مهانًا بعد

أن اعتقد أنه من أهل الكرامة.

ثامنًا: تماثل الضدين، والمساواة بين المحسن والمسيء، ودفع بعد إنكاره بمجمل الجواب؛ وسمًا بسوء الحكم، وبمفصله؛ إذ حصول التفاوت في الدرجات والدركات بين المحقين وبين المبطلين من لوازم قيام أمر هذا الكون علىٰ نظام الحق والعدل؛ تحقيقًا للجزاء الأوفىٰ الذي هو عنوان علىٰ العدل، فالمجازىٰ غير مظلوم، بل مجزي بما قدمته يداه.

تاسعًا: خفاء الباطن علىٰ الله، ودفع بتسجيل الخبر المؤكد بكذب كل متستر بالباطل، وكل صاحب ضغينة في دعواه أن الله غير مطلع عليهم، وبتقرير أن الله سامع مطلع علىٰ سرهم ونجواهم، وهناك من يلازمهم من الملائكة يكتب ويقيد تلك الأعمال والأقوال الخافتة؛ ليؤخذوا بها في يوم الجزاء والحساب.

عاشرًا: اعتبار الظاهر دون تنقيب، ومن صور دفع هذا الحسبان المرجوح، رد حسبان انتفاع الكفار بحواسهم في سماع الآيات وعقلها بتقرير حاسم في انتفاء انتفاعهم وانحطاط رتبتهم بأنهم كالأنعام بل هم أضل؛ إذ تنقاد الأنعام لمربوبيها ولا ينقادون هم لله خالقهم ورازقهم، ودفع حسبان اجتماع أجساد الذين كفروا من أهل الكتاب – مظنة لالتئام قلوبهم – بإقرار تفرقهم وأنهم مختلفون غاية الخلاف فبينهم إحن وعداوات، فلا يرمون عن قوس واحدة، وأنه مسبب عن نفي فهم عقولهم فكان ذلك شقوة لهم حصلت منها سعادة للمسلمين.

الحادي عشر: عدم مؤاخذة المتشبع بما لم يعط، ودفع بتقرير ذم فاعله واستحقاقه الوعيد بمسالك منها: تصدير الوعيد بتكرار النهي عن الحسبان؛ تأكيدًا وإيضاحًا لقصتهم، وتنبيها علىٰ بطلان آرائهم الركيكة، وقطع أطماعهم الفارغة بالنجاة من عذاب الآخرة كما زعموا نجاتهم من المؤاخذة الدنيوية، ثم

تكرار الوعيد بعدم النجاة من عذاب متربص بهم، وثني باستحقاقهم العذاب لثبوت جرمهم، ووصف بالأليم؛ مناسبة لما اقترفوا من فرح بتدليسهم.

الثاني عشر: **تمحض المصائب للشر**، ودفع بالتنبيه إلىٰ عاقبة خير عميم عظيم في الحال والمآل في الدنيا والآخرة، كما حصل في حادثة الإفك؛ إذ برزت جملة من مظاهر الخيرية والألطاف الخفية، كاستحقاق المبتلون جزيل الثواب لصبرهم وإخلاصهم لله، وتوكلهم علىٰ الله، ورفيع الدرجات والكرامات النيرات؛ إذ أنزل في أم المؤمنين قرآن يتلىٰ، ومحّص الصف وفضح المنافقون وأبرز كيدهم، وأثبتت مصدرية القرآن وحيًا من عند الله.

الثالث عشر: **ترك المؤاخذة بقول اللسان**، ومثل لذلك بحسبان الناس فيضهم وخوضهم في حديث الإفك هينًا لا تبعة عليه، ودفع أولًا بإسناد تلقي الأقوال المتداولة إلىٰ الألسنة دون الأسماع تصويرًا لسرعتها وخفتها حتىٰ إذا وصلت أديرت إلىٰ الآخرين دون أدنىٰ تأمل، ثم بتقييد قولهم بـ(الأفواه) أي تجري علىٰ ألسنتهم وتدور في أفواههم من غير ترجمة عن علم بها في القلب، وتمم جواب الحسبان بوصفه بالعظمة، فالحال أنه عند الله عظيم في الوزر واستجرار العذاب.

وقد انقدحت عن هذه الدراسة توصيات هي:

١- دراسة أساليب القرآن العظيم وأدواته في رفع الأوهام وتصحيح الأفهام دراسة شاملة محكمة في أطروحة علمية.

٢- دراسة كل مفهوم من المفاهيم الباطلة التي نوه بها القرآن العظيم دراسةً مخصوصة تستنبط منهج القرآن وجميع أساليبه في دفعه بوصف الداء وبيان الدواء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

ثبت المصادر والمراجع

١ -«إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر». البناء، أحمد بن محمد الدمياطيّ. تحقيق: أنس مهرة. ط: الثالثة، لبنان: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٦م.

٢ -«الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان». ابن بلبان، علي بن بلبان. تحقيق: شعيب الأرنؤوط. ط: الأولىٰ، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٨ م.

٣ -«ارتشاف الضرب من لسان العرب». أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي. تحقيق: رجب عثمان محمد. ط: الأولىٰ، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٩٨ م.

٤ -«إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم». أبو السعود، محمد بن محمد. د.ط، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.

٥ -«الأساس في التفسير». سعيد حوّىٰ. ط: السادسة، القاهرة: دار السلام، ١٤٢٤ هـ.

٦ -«أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن». الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار. بيروت: دار الفكر للطباعة، ١٩٩٥ م.

٧ -«أنوار التنزيل وأسرار التأويل». البيضاوي، عبد الله بن عمر. د.ط، بيروت: دار الفكر، د.ت.

٨ -«أوضح المسالك إلىٰ ألفية ابن مالك». ابن هشام، عبد الله بن يوسف. تحقيق: يوسف البقاعي. د.ط، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.

٩ -«البحر المحيط في التفسير». أبو حيان، محمد بن يوسف. تحقيق: صدقي محمد جميل. ط:١، بيروت: دار الفكر، ١٤٢٠ هـ.

١٠- «بيان مشكل الآثار». الطحاوي، أحمد بن محمد. تحقيق: شعيب الأرنؤوط. ط الأولىٰ، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٤م.

١١- «التحرير والتنوير: تحرير المعنىٰ السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد». ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد. د.ط، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

١٢- «التَّفْسِيرُ البَسِيْط». الواحدي، علي بن أحمد النيسابوري. تحقيق: أصل رسائل دكتوراة بجامعة الإمام. ط: الأولىٰ، الرياض: عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٣٠ هـ.

١٣- «تفسير القرآن الحكيم». رشيد رضا، محمد رشيد بن علي. د.ط، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

١٤- «تفسير القرآن العظيم». ابن كثير، إسماعيل بن عمر. تحقيق: سامي بن محمد سلامة. ط: الثانية، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٩٩٩ م.

١٥- «التفسير الوسيط للقرآن الكريم». طنطاوي، محمد سيد. ط: الأولىٰ، القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، بين ١٩٩٧-١٩٩٨م.

١٦- «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان». السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق. بيروت: مؤسسة الرسالة، ط: الأولىٰ، ٢٠٠٠م.

١٧- «جامع البيان في تأويل القرآن». الطبري، محمد بن جرير. تحقيق: أحمد محمد شاكر. ط: الأولىٰ، بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠ م.

١٨- «الجامع الصحيح». البخاري، محمد بن إسماعيل. ط: الأولىٰ، بيروت: دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ.

١٩- «الجامع لأحكام القرآن». القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري. تحقيق: سمير البخاري. ط: الأولىٰ الرياض: دار عالم الكتب، ٢٠٠٣ م.

٢٠- «الجامع». الترمذي: محمد بن عيسىٰ. د.ط، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٦- ١٩٩٨م.

٢١- «الحجة القراءات». ابن زنجلة، عبد الرحمن بن محمد. تحقيق: سعيد الأفغاني. ط الثانية، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٢م.

٢٢- «الحجة في القراءات السبع». ابن خالويه، الحسين بن أحمد. تحقيق: د. عبد العال سالم مكرم. ط الرابعة، بيروت: دار الشروق، ١٤٠١هـ.

٢٣- «الدر المصون في علوم الكتاب المكنون». السمين الحلبي، أحمد بن يوسف. تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، د.ط، دمشق: دار القلم، د.ت.

٢٤- «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني». الألوسي، محمود بن عبد الله. تحقيق: علي عبد الباري عطية. ط: الأولىٰ، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥ هـ.

٢٥- «زاد المعاد في هدي خير العباد». ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر. ط: السابعة والعشرون، بيروت: مؤسسة الرسالة، الكويت: مكتبة المنار الإسلامية، ١٩٩٤م.

٢٦- «الزاهر في معانيٰ كلمات الناس». الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم. تحقيق: د. حاتم صالح الضامن. د. ط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٢م.

٢٧- «شرح ابن عقيل علىٰ ألفية ابن مالك». ابن عقيل، عبدالله بن عبدالرحمن. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. القاهرة: ط ٢٠، دار التراث، دار مصر للطباعة، ١٩٨٠م.

٢٨- «شرح الأشموني علىٰ ألفية ابن مالك». الأُشْمُوني، علي بن محمد بن عيسىٰ. ط: الأولىٰ بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م.

٢٩- «شرح المفصل للزمخشري». ابن يعيش، يعيش بن علي. ط: الأولىٰ، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م.

٣٠- «الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية». الجوهري، إسماعيل بن حماد. تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار. ط: الرابعة، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٧م.

٣١- «الصحيح المسند». مسلم، مسلم بن الحجاج. د. ط، بيروت: دار الجيل (مصورة من ط التركية المطبوعة في إستانبول سنة ١٣٣٤ هـ). وترقيم الأحاديث، وفق طبعة: (دار إحياء الكتب العربية – القاهرة).

٣٢- «عمدة القاري شرح صحيح البخاري». العيني، محمود بن أحمد الحنفي، د. ط، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.

٣٣- «غريب الحديث لابن سلام (الجزء الاول)». ابن سلام. القاسم بن سلام. ط: الأولىٰ، الهند: بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، ١٩٦٤ م.

٣٤- «الفائق في غريب الحديث والأثر». الزمخشري، محمود بن عمرو. تحقيق: علي محمد البجاوي –محمد أبو الفضل إبراهيم. ط: الثانية، بيروت: دار المعرفة، د.ت.

٣٥- «فتح الباري شرح صحيح البخاري». ابن حجر، أحمد بن علي. د. ط، بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٩ هـ.

٣٦- «فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف)». الطيبي: الحسين بن عبد الله الطيبي، تحقيق: جميل بني عطا. ط: الأولى، دبي: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ٢٠١٣م.

٣٧- «كتاب الألفاظ (أقدم معجم في المعاني)». ابن السكيت، يعقوب بن إسحاق. تحقيق: فخر الدين قباوة. ط: الأولى، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٨م.

٣٨- «كتاب العين». الخليل، الخليل بن أحمد الفراهيدي. تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي. د.ط، بيروت: دار ومكتبة الهلال، د.ت.

٣٩- «كتاب سيبويه». سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. د.ط، بيروت: دار الجيل، د.ت.

٤٠- «كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم». التهانوي، محمد علي. بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٦م.

٤١- «الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل». الزمخشري، محمود بن عمرو. ط: الثالثة، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٧ هـ.

٤٢- «لسان العرب». ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي. ط: الثالثة، بيروت: دار صادر، ١٤١٤ هـ.

٤٣- «محاسن التأويل». القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد. تحقيق: محمد باسل عيون السود. ط: الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٨ هـ.

٤٤- «المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها». ابن جني، أبو الفتح عثمان. د.ط، وزارة الأوقاف - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٩٩٩م.

٤٥- «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز». ابن عطية، عبد الحق بن غالب. تحقيق: عبد السلام محمد. ط: الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢ هـ.

٤٦- «المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة دراسة الأسباب رواية ودراية». المزيني، خالد بن سليمان. ط: الأولى، الدمام: دار ابن الجوزي، ٢٠٠٦م.

٤٧- «المخصص». ابن سيده، علي بن إسماعيل. تحقيق: خليل إبراهم جفال. ط: الأولى، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٦م.

٤٨- «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين». ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر. تحقيق: محمد المعتصم بالله. بيروت: دار الكتاب العربي، ط: الثالثة، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م.

٤٩- «معالم التنزيل». البغوي، الحسين بن مسعود. تحقيق: محمد النمر وآخرون. ط: الرابعة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٩٩٧م.

٥٠- «معاني القرآن وإعرابه». الزجاج، إبراهيم بن السري. تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي. ط: الأولىٰ، بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٨م.

٥١- «معاني النحو». فاضل صالح السامرائي، الأردن: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط: الأولىٰ، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

٥٢- «معجم مقاييس اللغة». ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون. ط الأولىٰ، بيروت: دار الفكر، ١٩٧٩م.

٥٣- «مفاتيح الغيب = التفسير الكبير». الرازي، محمد بن عمر. ط: الثالثة، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠ هـ.

٥٤- «المفردات في غريب القرآن». الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد. تحقيق: صفوان عدنان الداودي. ط: الأولىٰ بيروت-دمشق: دار القلم، الدار الشامية، ١٤١٢هـ.

٥٥- «المقتضب». المبرد، محمد بن يزيد. تحقيق: محمد عظيمة. د.ط، بيروت: عالم الكتب، د.ت.

٥٦- «النشر في القراءات العشر». ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف. تحقيق: علي محمد الضباع، د.ط، المطبعة التجارية الكبرىٰ [تصوير دار الكتاب العلمية]، د.ت.

٥٧- «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور». البقاعي، إبراهيم بن عمر البقاعي. تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، ط الأولىٰ، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٥م.

٥٨- «النكت والعيون». الماوردي، علي بن محمد. تحقيق: السيد ابن عبد المقصود. د.ط، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.

٥٩- «همع الهوامع في شرح جمع الجوامع». السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. تحقيق: عبد الحميد هنداوي. د.ط، مصر: المكتبة التوفيقية، د.ت.

الموضوعات

مستخلص البحث ٢٦٩
المقدمة ٢٧٣
المبحث الأول: أساليب تصحيح المفاهيم في القرآن، والتصحيح بـ(حسب) ٢٧٧
المطلب الأول: أساليب تصحيح المفاهيم في القرآن ٢٧٧
المطلب الثاني: تصحيح المفاهيم بـ(حسب) وتصاريفه في القرآن ٢٨٣
المبحث الثاني: المفاهيم المصححة بـ(حسب) وتصاريفه في القرآن ٢٨٨
المفهوم الأول: تحقق الإيمان بلا تكليف، واستحقاق النصر والتمكين والجنة والنعيم بلا تمحيص ٢٨٨
المفهوم الثاني: مفازة المسيئين من العذاب، وإمهالهم خير لهم، وإمدادهم بالنعم إكرام ومزية . ٢٩٤
المفهوم الثالث: منفعة الكافر بعمله ومجازاته عليه ٣٠٠
المفهوم الرابع: وجود الأولياء ونصرتهم من دون الله ٣٠٣
المفهوم الخامس: انتفاء غاية الخلق واستبعاد البعث ٣٠٦
المفهوم السادس: انقطاع حياة الشهداء وفوات نعيمهم بعد الموت ٣٠٩
المفهوم السابع: كنز المال غنيمة لصاحبه، وطريق خلوده ٣١٤
المفهوم الثامن: تماثل الضدين، والمساواة بين المحسن والمسيء ٣١٩
المفهوم التاسع: خفاء الباطن على الله ٣٢٣
المفهوم العاشر: اعتبار الظاهر دون تنقيب ٣٢٧
المفهوم الحادي عشر: عدم مؤاخذة المتشبع بما لم يعط ٣٣٣
المفهوم الثاني عشر: تمحض المصائب للشر ٣٤٠
المفهوم الثالث عشر: ترك المؤاخذة بقول اللسان ٣٤٥
الخاتمة ٣٤٩
ثبت المصادر والمراجع ٣٥٤
الموضوعات ٣٥٩

مجلة تدبر

TADABBUR MAGAZINE

Refereed Scientific Biannual Journal specialized in the Arbitration and Publication of the Researches and Studies related to the Areas of Meditating on the Holy Qur'an

Issue No. (11) Year 6 / Muharram 1443 AH, corresponding to August 2021

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]

TADABBUR MAGAZINE Index:

- The Quranic Pieces of Spiritual Guidance in the Almighty's words: "And (all) the Most Beautiful Names belong to Allah, so call on Him by them..." [Al-A'arāf: 180[
  Dr. Mohammed ali gamil Al-matari
  Dr.yousef mohammed abdo mohammed al-awadhy
- Beings receiving Divine Protection according to the Surah Al-Hijr
  Dr. Hamid bin Adnan Al-Ansari
- Things that nullify Good Deeds according to the Surah Muhammad (Peace be upon him) An objective study
  Dr. Badria Saeed Al-Wadiee
- The General Context of Revelation and Its Effect on the Rhetorical Analysis of the Quranic Verses –The Sura of Al-Jum'ah as a Case Study-
  Dr. Muhammad bin Abdulaziz bin Omar Naseef
- Dispelling and Correcting Misconceptions by Using the Arabic Triliteral Verb "ḥasiba, to think" and its Different Tense-related Conjugations in the Quran
  Dr. Kholoud Muhammad Amin Mahmoud Al-Hawwari
- Report on a scientific thesis entitled: Using Images in the Interpretation of the Noble Quran – Establishing Principles, Evaluation and Correction
  by the Researcher: Dr. Abdullah bin Umar bin Ahmed Al-Umar
- Report on a scientific project entitled: Al-Naba' Al-Atheem Foundation in Makkah
- Engagement with Obscure Qur'anic Verses and Hadith Texts in Classical and Modern Literature

25 SR

1658-7642